

الله ..
أو الطاغوت

(مسائل أساسية في التصور الإسلامي)

د. عماد الدين خليل

الله .. أو الطاغوت

بسم الله الرحمن الرحيم

د. عماد الدين خليل

الله ..
أو الطاغوت

(1)

في القرآن الكريم دعوة صريحة لرفض طاعة أولي الأمر وتحقيرها واستهجانها ، أو التنديد بأولئك الذين يمارسونها وتوعدهم بأشد العقاب .. وذلك عندما يكون أولو الأمر ، سادة وأمراء ورؤساء ومترفين وسلطين وخلفاء وحكاما ، في خلاف مع الله ورسوله !! وليس كما يقول الخبيثاء من أصحاب السلطة والمصلحة ، ويردد السذج من المغفلين والمستعبدين من أن على المؤمن إطاعة أولي الأمر لأن ذلك من أمر الله!! وكيف يناقض القرآن الكريم نفسه (وحاشاه) .. ويدعو إلى تنفيذ أمر الطاغوت والتزام تشريعه وقوانينه ونظمه إذا كان الطاغوت يستهدف أساسا تدمير كلمة الله في الأرض ، وانتزاع حاكميته ، وتعبيد الناس له من دون خالق الناس!؟

من يرضى أن ينساق وراء هذا الفهم السخيف إلا أن يكون ساذجا أو خبيثا ؟ إن كتاب الله سبحانه يقولها صريحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽¹⁾ ويقولها واضحة صريحة لا لبس فيها ولا غموض ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ﴾⁽²⁾ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾⁽³⁾ .. فكيف يعقل أن يدعو في الوقت نفسه ، وباتجاه نقيض تماما ، إلى طاعة أولي الأمر حتى لو كانوا ممن لم يحكم بما أنزل الله ، وممن يفتنون الناس عن دينهم ، وممن يمارسون الظلم بقسر الناس على الخضوع لمناهجهم وتشريعاتهم على حساب دين الله وتشريعه!؟

إن طاعة أولي الأمر بهذا المعنى تتمخض بالضرورة عن سعي مضاد ، أو ثورة مضادة بالتعبير الحديث ، تستهدف تدمير دين الله في الأرض والتمكين لنظم الطاغوت .. وذلك أمر مردود من أساسه ، لا يقبل مناقشة أو لجاجا ، وذلك أمر مرفوض ..

(2)

ها هو القرآن الكريم يندد في عشرات المواضع بهذه العلاقة المرذولة بين السادة الذين يحكمون بما لم ينزل الله وبين العبيد الأتباع ممن ينساقون لتنفيذ كلماتهم وأهوائهم وظنونهم .. لا يندد بهم فحسب ، ولكنه يسخر منهم ويحقرهم .. ويعرض - على طريقته المؤثرة - مشاهد حية شاخصة مما سيشهد يوم الحساب من (حواريات) (كاريكاتيرية) بين أولئك وهؤلاء .. بين

(1) المائدة 44 .

(2) البقرة 193 .

(3) الأنفال 25 .

الطواغيت والأرباب الذين يعبدون الناس لحسابهم وبين العبيد الذين يختارون أن يعملوا لصالح الطواغيت والأرباب ، متنازلين عن حريتهم التي منحهم الله إياها ، مستهينين بكرامتهم التي فضلهم الله بها على العالمين ..

وبقدر ما يرفض القرآن الطغيان والاستعباد ، فإنه يرفض بنفس القوة والعنف التذلل والهوان .. فلولا هذا ما كان ذلك .. والطاغوت الذي لا يجد من يعبده ، ويسبح بحمده ، ويلتزم أوامره ، وينفذ منهجه وتشريعته .. يموت قهرا !! .. أو على الأقل يحمل عصاه ويرحل .. لأنه لا يجد الأرضية الملائمة لأن (يكون)!! ومرة أخرى .. ﴿اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ !! .

(3)

نرحل في كتاب الله ولنقف قليلا نعاين هذا المشهد أو ذلك مما سيشهده يوم الحساب وكأنه واقع اللحظة ، حيث يلغي العرض القرآني - على طريقته الفذة - حاجز الزمن ، ويقفنا وجها لوجه إزاء يوم الحساب ..

المشاهد كثيرة .. لأنه ما من تجربة كررت نفسها عبر تاريخ البشرية كتجربة استعباد الناس للطاغوت وتعبيدهم لأهوائهم وظنونهم ، والذهاب بهم بعيدا عن شرع الله العادل ومنهجه المحرر ودينه المستقيم .. ما من (لعبة) أعادت نفسها بألف ثوب وثوب كلعبة فراعنة العالم وهم يقسرون الناس على أن يسجدوا لهم من دون الله وأن يفعلوا وينفذوا ما يرونه هم .. لا ما يريده الله ولا ما يراه الناس أنفسهم .. إنها مأساة التاريخ البشري وملهاته في الوقت نفسه ..

المشاهد كثيرة .. ولن يتسع المجال لتخليها جميعا .. فلنكتف ببعض منها .. نماذج فحسب لما يريد القرآن أن يقوله في نهاية كل مشهد بلسان الحال أم بلسان المقال .. رفضا لطاعة أولي الأمر ودعوة لفك الارتباط المخزي معهم ، ونداء للسعي صوب مصير أكثر حرية وإضاءة وانسجاما مع كرامة الإنسان ومكانته في العالم ..

(4)

﴿وَأَذِ يَنحَاجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾⁽¹⁾ .

فهل ثمة ما يدعو إلى رفض الطاعة ، وينفر منها ، أكثر من هذا الموقف المخزي الذي تتكشف فيه الأوراق ويتبدى عجز المستكبرين على حقيقته ومداه ؟

(1) غافر 47-48 .

إنهم لن يستطيعوا أن يحجبوا عن أتباعهم ولو شرارة واحدة من نار .. ولن تغني عن الضعفاء تبعيتهم الطويلة للمستكبرين - يومها - لن يغني عنهم استعبادهم أنفسهم لشهوة الطاغوت وتجبره .. إن الله قد حكم بين العباد .. ولن يكون أشد الطغاة طغيانا ، إزاء هذا الحكم، سوى أداة هينة لينة يفعل الله فيها ما يريد .. ولن تجدي آلاف السنين من التذلل والتبعية والتمسح .. لمن ؟ لأناس لا يملكون إزاء حكم الله أي شيء .. ولا حماية أتباعهم من نفة من نار ..

وإذا كان الأمر كذلك ، فلم كانت أيام الاستعباد والتذلل الطويلة في الحياة الدنيا ؟ لم كانت سني القهر والخوف والتبعية ؟ أفما كان التحرر ورفع الرأس بما يليق بكرامة الإنسان أليق وأجدي ؟

ونمضي إلى صورة أخرى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مِمَّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (1) .

فها هنا يسرع الطواغيت فيأخذون المبادرة قبل أن يسألهم الأتباع شيئا فلا يقدر عليهم .. يسرعون فيعلنون براءتهم من الأتباع ، فإن العذاب الذي يرونه واقعا بهم ليقطع الأسباب !! فما يكون جواب الأتباع . حماية لماء الوجه . إلا أن يعلنوا رغبتهم في العودة ثانية إلى الحياة الدنيا لكي يردوها في وجه الطاغوت ويعلنوا تبرأهم منهم !! وبقينا أنهم ليسوا بفاعلين حتما لو استجيبت أمنيتهم وعادوا إلى هناك .. فالنفوس التي تتحني للظلم يلويها الظلم، ولن يكون بمقدور ألف عودة إلى الحياة الدنيا أن تعيدها إلى سويتها .. وتلك هي مأساة الاستعباد .. إنها تقتل الإنسان .. تقطع آخر خيط في قدرته على التشبث بالرفض والمقاومة حماية لحيته وكرامته ..

ومهما يكن من أمر فإنه لا الطواغيت ولا الأتباع بقادرين على فعل شيء ، وإنما هي أعمالهم تبرز أمامهم حسرات ، في ساحة النار التي لن يخرجوا منها بحال ..

في سورة (سبا) نلتقي بمشهد آخر حيث يدور هذا الحوار ﴿... يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فيرد الذين استكبروا : ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ ويجب الذين استضعفوا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا

(1) البقرة 166-167 .

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

فها هم جميعا ، التابعون والمتبوعون ، وبعد أن وقعوا في قبضة العدل الإلهي ورأوا العذاب الذي لن ينجو منه تابع ولا متبوع .. ها هم يمارسون ما يمكن تسميته (بالتعليق) .. يتخذ كل طرف من الطرف الآخر مشجبا يسعى إلى وضع خطيئته عليه لكي ينجو بجلده .. ولن ينجو أحد .. فالمعادلة القرآنية واضحة لا تقبل نقضا ولا تبديلا : إن الخضوع للطاغوت الذي يحكم بما لم ينزل الله (جريمة) يعاقب عليها صاحبها تماما كما يعاقب الطاغوت الذي يقسر الناس على التعبد له من دون الله سواء بسواء .. ولن يجدي النقاش .

ويتكشف عبث لعبة تعليق المسؤولية هذه أمام الحقيقة النهائية التي يمنحها القرآن ، وفق طرائقه الفنية ، لقارئيه .. فبينما يغرق المخدوعون في مناقشات طويلة معتقدين أن بمقدور أحد الطرفين أن يوقع بالآخر .. ينظر الإنسان - من الخارج - فيعرف مقدا عدم جدوى هذه المحاولات .. لقد قضي الأمر وليس ثمة بعد اليوم من معذر .. وكما أن الطغيان أمر مرفوض ومعاقب عليه ، فإن التبعية والمذلة أمران مرفوضان - أيضا - ومعاقب عليهما .. ومن ثم يعقب القرآن الكريم متحدثا عن الطرفين ﴿..وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ
الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (2) .

ولم يقل كتاب الله أن الأغلال كانت من نصيب الطواغيت فحسب ، بل جعل الطرف الآخر - كذلك - يرصف في قيودها .. الطرف المستعبد ، المستضعف .. لماذا؟ لأن تعبدهم وتذللهم كان عملا ممقوتا ومرفوضا ، وكان لابد من أن ينالوا جزاءهم على العمل الممقوت والمرفوض .. إنهم كانوا - كما قال أسيادهم - يحملون الاستعداد الدائم لممارسة الجريمة .. جريمة الطاعة لمن لم يحكم بما أنزل الله ..

وفي سورة الأعراف ، حيث يدارك الطواغيت والمستضعفون من أتباعهم في النار ، نسمع هذا الدعاء الحار من المستضعفين وهم يشيرون بأيديهم إلى الطواغيت ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ ويكون الجواب الصارم جزاء مضاعفا بحجم الجرم الذي مارسه الطرفان معا : التابع والمتبوع ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ (3) ويستمر الحوار في

(1) سبأ 31-33 .

(2) سبأ 33 .

(3) الأعراف 38 .

جو من اليأس الخائق فتقول أولاهم لأخراهم ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (1) .

إن تبعيتهم نفسها ترمى بوجوههم من الأسياد فما كان لهم عليهم فيها من فضل !! لقد استسلم الضعفاء وأيقنوا وقوع العذاب بهم ، لكنهم يريدونه مضاعفا لأسيادهم معتقدين أن جرمهم أكبر .. ولكن كتاب الله يضع الموازين القسط فيضاعف العذاب للطرفين.. لماذا؟ لأن التذلل للطغيان ، وأتباعه ، هو بحجم الطغيان نفسه .. سواء بسواء ..

وفي سورة الأحزاب يتكرر دعاء المستضعفين ، ويتردد نداؤهم مرة أخرى : أن ينال أسيادهم ضعفين من العذاب وأن تحل بهم لعنة أكبر ، معتقدين أن هؤلاء الأسياد يقفون وراء ضلالهم في الحياة الدنيا ، وما دروا أنهم هم ، التابعون ، صنعوا مأساتهم بأيديهم .. يتردد النداء، ولكن القرآن هنا لا يجيبهم بشيء ، لأن تركهم هكذا دون جواب أبلغ من أي جواب ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (2) .. لكانه بعدم رده عليهم يريد أن يقول لهم موبخا مبكتا : ولم أطعتموهم..؟

وثمة في سورة إبراهيم هذا الحوار المؤثر بين الطرفين ﴿وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (3) ..

إن الأتباع هاهنا يسلكون طريقا آخر ، إنهم يتجرعون غضبهم على أربابهم ويكبتونه في نفوسهم ويتقمصون موقف المتوسل على طواغيتهم الذين قادوهم في الدنيا يواصلون قيادتهم في الأخرى ويقدرتون تبعية أذناهم حق قدرها ، فيسعون للتخفيف من العذاب الواقع بهم .. ولكن هؤلاء الأرباب يعرفون النتيجة سلفا ، وإذا كانوا في الحياة الدنيا قد قادوهم إلى البوار ، فإنهم هاهنا غير قادرين على شيء ، فبأي وجه يسعون للتخفيف عنهم؟

إن الطرفين يقعان في دائرة الجزاء ، وسواء عليهم أجزعوا أم صبروا فما ثم من محيص!!

(5)

ويتخذ القرآن الكريم من فرعون رمزا للطاغوت في كل زمان ومكان.. أي فرعون؟ إن القرآن لا يسميه .. إنه يطرحه رمزا مجردا عن اللحم والدم والشخصية .. إنه طاغوت وكفى

(1) الأعراف 39 .

(2) الأحزاب 67-68 .

(3) إبراهيم 21 .

.. والحق أن طواغيت العالم كله يتشابهون ، ليس ثمة تميز واضح بين أحدهم والآخر إنهم (نوعيا) سواء ولكنهم قد يختلفون بالكمية .. بحجم الطغيان ودرجته وقسوته وعنفه .. ولكنهم يبقون متشابهين كالأرقام الصماء .. نفس الشهوة الجارفة للحكم والسلطان .. نفس الرغبة العاتية في الاستعلاء والامتلاء .. نفس الدافع الرهيب لإذلال الآخرين واستعبادهم .. نفس الهوى الجارف لتدمير شخصيات المتفوقين وتفكيكها وسحقها .. نفس التشنج والجنون إزاء أي اعتراض أو رد أو مناقشة أو مجابهة .. ومن أجل ذلك من أجل أن الطواغيت كلهم فرعون ، ومن أجل أن فرعون هو كل واحد من هؤلاء الطواغيت .. فإن القرآن الكريم لا يسميه!!

وبدلا من ذلك يريد أن يتخذه وسيلة إيضاح ، مجرد أداة ، لدعوته الصارمة الجازمة إلى رفض الطاعة .. رفض العبودية والتذلل والذوبان في كيان المستكبرين .. وكما كان فرعون - تاريخيا - أداة بيد قدر الله ، ضربت بمصيره الأمثال ، فإنه - موضوعيا - كذلك أداة يعتمدها القرآن لتصوير موقف الطاغوت والتحذير منه في الوقت نفسه وهو يسلط الأضواء عليه من كل زاوية لكي يكشفه على مده ، فيقف فرعون أمام الله والناس والتاريخ عاريا مكشوف الفكر والهوى والأهداف ..

وفي مواضع عديدة من كتاب الله تتوالى ضربات الفرشاة لكي تستكمل - بالكلمة - صورة هذا الكائن المقيت الذي جاء الإسلام لكي يستأصله من العالم ولكي يلحقه بفصيلة الديناصور المنقرضة .. ترى هل سيقدر على ذلك يوما؟!

لنلقي أسماعنا إلى بعض هذه الضربات .. ثم نمضي إلى زوايا أخرى في الموضوع الذي بين أيدينا ، فإن الحديث عن فرعون يطول ..

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾⁽¹⁾ .

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾⁽²⁾ .

﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾⁽³⁾ .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁴⁾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ

(1) هود 97 .

(2) الإسراء 102 .

(3) طه 79 .

(4) التحريم 11 .

وَنَجْعَلُهُمْ أُتَمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿١﴾ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (2) فماذا كانت النتيجة؟
﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُتَمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (3) .

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (4) .. ومرة أخرى ماذا كانت النتيجة ؟ ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (5) .. فالعبرة في النهاية ، كما يقول المثل المعروف .

(6)

والطاغوت الذي هو في النهاية (فبركة) بشرية متشابهة.. وعجينة واحدة .. قد يتغير جلده .. رداؤه الخارجي.. ملامح وجهه وديكوراته .. قد يميل إلى هذا الجانب أو ذاك .. وقد يهد هنا أو هناك .. وقد يهوى تنفيذ نزعتة الطاغية بهذه الصيغة أو تلك .. قد يكون الطاغوت ملكا أو أميرا أو رئيسا أو سلطانا .. وقد يكون أبا أو جدا أو جيلا من الناس .. وقد يكون غنيا أو مترفا كثير العشيرة والأولاد .. وقد يكون مسرفا أو مشعوذا أو كاذبا أو ماكرا أو دجالا .. وقد يكون فاسقا أو فاجرا أو كفارا .. وقد يكون مجرما أو شيطانا مريدا .. وقد يكون - حتى - كاهنا أو راهبا أو رجل دين في نهاية المطاف!!

والقرآن الكريم يلاحق هذه الأنماط المختلفة من الطواغيت .. يلاحقها جميعاً ويدعوا بصرامته الحاسمة إلى رفض طاعتها جميعا !!

(1) القصص 4-6 .

(2) القصص 38-39 .

(3) القصص 40-42 .

(4) الزخرف 51-52 ، 54 .

(5) الزخرف 55-56 .

ورغم أن الله يعرف حق اليقين كيف يصدر هؤلاء جميعا عن نبع واحد هو شهوة السلطان والتأله على الناس ، واستعبادهم ، وصرفهم عن التوجه إلى خالقهم جل وعلا .. ويعرف، حق اليقين ، المستنقع الواحد الذي تصب فيه هذه الشهوات على اختلاف أنماطها ، فإنه يسعى إلى عرضها بأشكالها وصيغها المختلفة كي لا يندأ أحد منها على المؤمنين الجادين، وكي تكون كلها في دائرة الضوء ، فلا يخفى منها نمط فيطعن من مكنه ظهور المؤمنين ، أو يلوح بإغراء غير مكشوف الأهداف للسذج من الناس .. يدعوهم إلى طاعته ..

إن القرآن الكريم يعرض علينا ، في حشود من آياته البيئات طواير الطاغوت وكأننا نشهد مهرجانا أو عرضا جماعيا .. تسير فيه أصناف المستكبرين ، مصعرة الخدود ، ممطوطة القامات ، منتقخة الأوداج .. يعرضها علينا جميعا ويدعونا إلى رفض طاعتها مهما تنوعت السمات واختلفت الملامح وتلونت الأردية ..

فلنقف قليلا على طرف من الطريق لنشهد ، في ختام رحلتنا هذه ، جانبا من مهرجان الأرباب والطواغيت ، ونسمع ، عند مرور كل وجبة منهم ، نداء القرآن الأبدي برفض الطاعة ، بلسان الحال أو بلسان المقال .. والتشبيث بالحرية التي تليق بمكانة الإنسان : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾⁽¹⁾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾⁽²⁾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾⁽³⁾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾⁽⁴⁾ .

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁵⁾ .

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾⁽⁶⁾ .

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾⁽¹⁾ .

(1) الأنعام 123 .

(2) البقرة 165 .

(3) الحج 3-4 .

(4) البقرة 170 .

(5) الأعراف 3 .

(6) الأنعام 150 .

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾⁽²⁾.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾⁽³⁾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾⁽⁴⁾.

﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّدُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾⁽⁵⁾.
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾⁽⁶⁾.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽⁷⁾.

(7)

ولن نختم رحلتنا هذه قبل أن نسمع معاً إلى هذا النداء التحريري العام الذي يعلنه القرآن الكريم بمواجهة الطاغوت على مدار التاريخ .. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾⁽⁸⁾.

وقبل أن نطلع معاً على مصير أولئك الذين رفضوا الذهاب مع نداء القرآن وتخلوا عن حريتهم ، وساقهم الضعف والخنوع إلى الخضوع للطغيان والاستسلام لمقدراته : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽⁹⁾.

(1) نوح 21 .

(2) هود 59-60 .

(3) الأنعام 126 .

(4) الشعراء 150-152.

(5) الشعراء 97-99.

(6) المائدة 77 .

(7) التوبة 30-31 .

(8) آل عمران 64 .

(9) النساء 97 .

الظلم العظيم

(1)

إنها قضية الحقيقة الكبرى .. الحقيقة المركزية التي تدور حولها كل الحقائق .. القضية الأم التي تنبثق عنها حقائق الوجود والمصير كافة .. البدء والمنتهى .. الميلاد والموت .. الفناء والبعث .. القضية الأساس التي تدير بها السماوات والأرض .. تجري السدم والنجوم والكواكب في مساراتها .. وتخفق الذرات في أفلاكها .. تنسرب الجواري في بحارها ومحيطاتها .. تحلق الطيور في فضاءها .. تكسر البذور قشرة الأرض لكي تطل على العالم واعدة بالخير والنماء والعطاء .. ويصرخ الطفل وهو يغادر رحم أمه حاملا في صلبه الشهادة على القضية التي هي قبل كل القضايا ومعها وبعدها ..

قضية التوحيد!

إنها أكبر القضايا ، وأثقلها ، وأشدّها وضوحا وفاعلية وألقا .. على الإطلاق .. ومن ثم كان الكذب عليها ، أو الالتفات حولها ، أو طمسها ، أو تزييفها ، هو أكبر كذبة في تاريخ الإنسان والملكوت .. وكان الشرك الذي يتمخض عنها ويؤول إليها هو . بالضرورة . أكبر أنواع الظلم وأعظمها على الإطلاق !

(2)

ظلم للذات الإلهية المتفردة ، المتوحدة ، المتعالية ، المنزهة ، القديرة ، الفاعلة ، المريدة ، الحاكمة ، التي لا ولي لها من الذل والتي لا تشرك في حكمها أحدا .. ظلم بإحالة الجزئي على الكلي ، والمحدود على المطلق ، والفاني على الخالد ، والناقص على الكامل ، والمخلوق على الخالق .. ومساواتهما .. ومنحهما معا أسماء وصفات وأفعالا واحدة ، بينما وحدانية الله تنفرد بأسمائها وصفاتها وأفعالها تفردا كاملا ، مطلقا ، منزها عن أي قدر من التشبيه أو المقاربة .. متعاليا بالضرورة التي لا تقبل أي مباحكة أو جدلا .. هذه الوحدانية التي تتجرأ المخاليق فتضع في مصافها ، أو قريبا منها ، ظواهر وموجودات ورموزا وأوثانا وصنميات وطواغيت وأربابا .. هي أولا وأخيرا من خلق الله .. وفي قبضته .. لا تعذب عنها .. ولا تستطيع فرارا من حكمها القاهر حتى لو أوت إلى نفق في الأرض أو ابتغت سلما في السماء أو سعت للنفاذ من أقطار الكون ..

ظلم للحق الذي يتأبى على الكذب والتزوير ، وللحقيقة التي ترفض التدليس والتشويه .. ظلم للإنسان نفسه ، وتدمير لفطرته النقية ، وتجاوز لبداهاته الحسية والعقلية والوجدانية على السواء ..

ظلم ل جماهير الناس باستلاب حريتها العميقة وإرغامها على الخضوع للرموز التي يصنعها الظلم العظيم .. للطواغيت والأرباب التي تحكم قبضتها على الرقاب ، وتمارس طغيانها وتألهاها في الأرض بألف صيغة أو أسلوب ، ولكنها جميعا تنسج بنول واحد ، يستمد من خيوط واحدة ، وينتهي إلى مصير واحد استعباد الإنسان ، وتحويل السعي البشري إلى إقطاعية كبيرة يتمتع فيها الطاغوت ، ويتلوى الأتباع مسغبة وقهرا ومذلة وجوعا واستلابا ..

ظلم لحركة التاريخ وقوانينها وسننها ووافقها مع حقائق الكون والوجود التي تنبض بإيقاع واحد ، وتمضي صوب هدف واحد ، فتزيد فاعلية وتألقا وعطاء ، من أجل جعلها ترتطم والنواميس ، فتتعارض ، وتتفتت وتفقد القدرة على الأداء .. وتنتهي في آخر المطاف إلى تلك القطيعة المرة ، والفصام النكد بين التاريخ والناموس !

ظلم على كل المستويات ، ومن كل زوايا الرؤية والتصوير والسلوك .. ظلم للذات والموضوع .. للفرد والجماعة .. للأرض والسماء .. للمحدود والمطلق .. ولكل ما يتمخض عنها جميعا من حشود الممارسات والجزئيات والمعطيات .. ومحاولة وضعها في غير أماكنها الدقيقة .. المحكمة ، المرسومة ، المتوازنة ، العادلة ، التي أرادها الله الواحد ، الأحد ، سبحانه وتعالى !

ترى ، كم من المصائب والمتاعب والأحزان والخسائر والويلات والتعاسات والآلام .. تجرعه الإنسان عبر تاريخه الطويل ، وهو يرغب على هذا التحول ، أو يختاره ابتداء ، فيخرج إلى الفوضى والتسيب والارتجال ، ويفقد توازنه .. ويضيع؟!

أليس هو الظلم العظيم الذي يبدأ بالكذب على الحقيقة الكبرى لكي ما يلبث أن ينسحب إلى كل الممارسات والخبرات مهما صغرت ودقت وبعدت عن العيان ؟
أليس هو الظلم الذي يلف الكون والحياة والخلائق والموجودات .. ويرغمها على أن تترك مساراتها المحكمة ، لكي ترتطم وتتفتت وتتبعثر وتضيع ؟

(3)

وكثيرة هي دوافع الشرك .. هذا الظلم الأعظم الذي يكذب على الله والحقيقة والتاريخ والإنسان .. فهناك شرك الجهل والتخلف الذي يلف جماهير الناس في عصور الأمية والانحطاط .. وهناك شرك الخديعة والضلال الذي يمارسه الطواغيت والأرباب ، أفرادا كانوا أم طبقات وجماعات وفئات ، من أجل إحكام قبضتهم على رقاب الناس وإذلالها واستعبادها من دون الله .. وهناك شرك المصالح والشهوات .. وشرك العادات والتقاليد .. وشرك الأهواء والظنون .. وهناك ، فضلا عن هذا كله ، أو مع هذا كله ، شرك التشريع بغير ما أنزل الله .. التشريع الذي يحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ، والذي يفصل على هوى الأسياد ،

ومصالحهم، وشهواتهم ، الثوب الذي يرغم على ارتدائه الأتباع ، والنظارات التي يرون من خلالها ما يريد لهم الأسياد أن يروه!

وإذا كان الشرك قد اتخذ عبر التاريخ البشري صيغا وأنماطا شتى ، قد تبدأ بعبادة الأحجار الملقاة على قارعة الطريق .. فإنه يكاد ، في قرننا هذا ، ينتهي إلى شرك الأتباع ، من خلال التشريع بغير ما أنزل الله .. عصر المذاهبيات والأيدولوجيات والمبادئ والعقائد التي تغوي، بلعبة الأفكار والفلسفات ، جماهير الناس ، وتسوقهم إلى مواقع التبعية والخضوع والاستعباد .

العصر الذي يريد فيه الحاكمون والمشرعون أن يسامتوا الله ، جل وعلا ، وأن تكون لهم، مثله تعالى أو دونه حاشاه ، الربوبية والحاكمية والسلطان ..

فإذا تذكرنا ما فعلته ، وتفعله ، وستفعله ، هذه الشرائع المقحمة .. هذه النظم والمذاهب الوضعية القاصرة التي آلت إلى الفشل والخسران بعد أن سرقت من عمر البشرية ، وهدرت من طاقات الإنسان ، وأكلت من سعادته .. الكثير .. إذا تذكرنا أنه ليس بمقدور أحد، أو جماعة من الناس ، مهما أوتي أو أوتيت من قدرة وذكاء وعلم وإحاطة وعدل ونبيل في المقاصد والغايات .. إلا أن تخطئ وتقتصر وتفقد الرؤية الشاملة ، المتوازنة ، الدقيقة ، الصائبة التي تتجاوز مواضع الزمان والمكان ، وتعلو على نسببات العرق أو الطبقة أو الشريحة أو الجماعة أو الجغرافيا أو التاريخ .. إذا تذكرنا هذا كله عرفنا كيف يكون الشرك هو الظلم العظيم ، ليس فقط للحقيقة الإلهية ، وإنما أيضا للإنسان نفسه! ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾⁽¹⁾ ، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾ ، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽³⁾ .

(4)

من أجل ذلك يعظ لقمان ابنه فيقول : ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾، ويحض الله سبحانه على طاعة الوالدين ، أو التلطف معهما ، إلا في هذه فإنه يأمر أمرا

(1) ياسين 30 .

(2) ياسين 60-62 .

(3) الأنعام 153 .

(4) لقمان 13 .

بالرفض والامتناع : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (1) ،
ومن أجل ذلك يعلنها القرآن الكريم بحسم ووضوح : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا
عَظِيمًا﴾ (2) ، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (3) ، وأن : ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ (4) وأن : ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (5) ومن أجل ذلك . أيضا . يحذر القرآن الكريم مرتين من : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (6) ، ويدعو إلى قتال المشركين كافة :
﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...﴾ (7) ، وإرهابهم : ﴿سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ...﴾ (8) ، ويضعهم في حالة العداوة القصوى للمؤمنين ، جنبا إلى جنب مع
اليهود : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ (9) ، ويعد بالنصر
والظهور عليهم : ﴿..لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (10) .

ومن أجل ذلك يقطع القرآن الكريم الطريق على محاولة تعليق مسؤولية الشرك ، بالجهل
أو التقليد ، ويعلن عن تركيز الشهادة على الربوبية الواحدة لحظة الخلق الأولى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ
مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ
أَفْتُنَّاكَ بِمَا فَعَلَ الْمُتَّبِلُونَ﴾ (11) .

فهو ، أي الشرك ، إذن : الظلم العظيم ، والإثم العظيم ، والضلال البعيد .. وهو
السقوط من الأعالي إلى الأماكن السحيقة .. وهو الذنب الأعظم ، من بين سائر الذنوب
الأخرى ، الذي يحرم على صاحبه الجنة ، ويحرمه من نعيم الغفران .. وهو الخطيئة الكبرى التي
يتحتم إعلان الحرب على مرتكبيها وإرهابهم في كل زمن ومكان .. وهو موقع الحقد والكراهية

(1) لقمان 15 .

(2) النساء 48 .

(3) النساء 116 .

(4) المائدة 72 .

(5) الحج 31 .

(6) النساء 48 .

(7) التوبة 36 .

(8) آل عمران 151 .

(9) المائدة 82 .

(10) التوبة 33 .

(11) الأعراف 172-173 .

الذي يجعل المنتمين إليه في خط العداء الأول لأبناء هذا الدين .. وهو قبل هذا وذاك (الانحراف) الخطير الذي منح الإنسان لحظة ميلاده : الشهادة ضده ، ولم يعط أيما عذر أو فرصة للانحراف في تياره المدمر بحجة الجهل أو التقليد .

(5)

وفي سياقات أخرى يعلن القرآن الكريم إدانته للشرك ، ويغذي كل سياق بالعديد من الآيات التي تلقي الضوء - من أكثر من زاوية - على هذا الموقف الظالم !
وفي إحدى هذه السياقات تأكيد على أن الشرك لا يعدو أن يكون ظنونا وأهواء وخرافات لا تقوم على أي أساس أو استناد من الحجة والعلم والبرهان : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (1) ، ﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (2) ، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِنَّمِ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (3) ، ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (4) ، ﴿وَمَا يَتَّبِعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (5) ، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ (6) ، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءَ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (7) .

وفي سياق آخر يكشف تفاهة الشركاء ، وسلبيتهم ، وخواءهم ، وعدم قدرتهم على الفعل والإبداع ، ويجردهم من أي قدر من الفاعلية والعطاء : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (8) ، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ (9) ، ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ

(1) الأنعام 81 .

(2) غافر 42 .

(3) الأعراف 33 .

(4) الروم 35 .

(5) يونس 66 .

(6) الرعد 33 .

(7) القلم 41 .

(8) الأعراف 191 .

(9) فاطر 40 .

شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ⁽¹⁾ ، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾⁽²⁾ ، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾⁽³⁾ ، ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽⁴⁾ .

وفي سياق ثالث يسخر من شرك المصالح التافهة ، ويصور الأَكْذُوبَةَ بالمفردات التي تجعل الأرباب وكهنتها وعبادها هزؤه أمام الناظرين : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾⁽⁵⁾ .

وينقلنا في سياق رابع إلى ما وراء الحياة الدنيا .. إلى يوم الحساب ، ويقف في آيات ومقاطع عديدة ليدين حالة الشرك بطرفيها : التابع والمتبوع ، وليعري أمام حشود الناس الأرباب والأذئاب في سلسلة من الصور والمشاهد والتعابير التي تشده الحس وتأخذ بتلابيب الوجدان البشري كي لا يجنح ، وهو بعد في الأرض ، باتجاه الوادي السحيق .. وكبي يتردد ألف مرة قبل أن يخطو خطوة واحدة ، بل قبل أن تختلج في مشاعره خالجة واحدة ، تحبب إليه أن يلتفت إلى دنيا الخبث والأوهام والظنون والمصالح والخرافات والعبودية هذه التي تدينها كلمات الله . ولقد تحدثنا عن هذه الصور والمواقف في موضع آخر من هذا الكتاب ، ويكفي - تجاوزا للتكرار - أن نحيل القارئ عليه⁽⁶⁾ .

وفي سياق خامس يعلن الرسل والأنبياء عليهم السلام ، وهم يخوضون معركة التوحيد ضد الشرك ، ويتقدمون الحركة الدائمة على مدى التاريخ البشري لإعادة الحق إلى نصابه وتجنيب البشرية مأساة الظلم العظيم ، يعلنون تبرؤهم المطلق من الشرك والمشركين ، ومفاصلتهم إياهم ، وإعلان الحرب عليهم ، بغض النظر عن مقدار القوة المنظورة التي يملكها

(1) الرعد 16 .

(2) يونس 34 .

(3) يونس 35 .

(4) الروم 40 .

(5) الأنعام 136 ، 138-139 .

(6) أنظر على وجه الخصوص موضوع (دعوة إلى رفض الطاعة) وموضوع (الكاريكاتير القرآني) .

أي من الطرفين ، لأن الهدف أكبر بكثير وأشد إلاحا من التردد قليلا للنظر في موازين القوى ، ولأن الله سبحانه قد تكفل بنصر رسله ومبعوثيه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ما داموا قد أدوا الأمانة ومضوا على الصراط المستقيم دون أي قدر من التردد أو التراجع أو الخوف :
«وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا»⁽¹⁾ ، «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ»⁽²⁾ ، «قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»⁽³⁾ ، «قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»⁽⁴⁾ ، «قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ»⁽⁵⁾ ، «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً»⁽⁶⁾ ، «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»⁽⁷⁾ ، «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»⁽⁸⁾ ، «بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ»⁽⁹⁾ ، «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»⁽¹⁰⁾ .

(6)

وقبل هذه السياقات ، ومعها ، وبعدها ، تتدفق الكلمات القرآنية والآيات البيّنات ، منزهة الله الواحد سبحانه ، مقدسة تفرده بالأسماء والصفات والأفعال ، مزيحة - وهي تنزهه وتقده خالق السماوات والأرض والإنسان ، وقيومها المتعالي الذي لم يلد ولم يولد - كل الضلالات والخرافات والظنون والأوهام التي استعبدت العقل والوجدان البشريين القرون الطوال .. معيدة الألق إلى هذه الحقيقة الأم .. الحقيقة الأساس التي تنبثق عنها وتقوم عليها كل الحقائق الأخرى في هذا الوجود .. ولن يكون ذلك في بدء التحليل وخاتمته ، إلا انتصارا لحرية الإنسان ، وسعادته ، وكرامته في هذه الحياة : «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»⁽¹¹⁾ ، «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»⁽¹⁾ ،

(1) الأنعام 81 .

(2) الرعد 36 .

(3) الأنعام 192 .

(4) هود 54 .

(5) الأعراف 195 .

(6) يونس 71 .

(7) الأنعام 79 .

(8) الأنعام 106 .

(9) التوبة 1 .

(10) الحجر 40 .

(11) الأعراف 190 .

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽²⁾ ، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽³⁾ ، ﴿إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽⁴⁾ .

ولنستمع - أخيرا - إلى هذا النداء العلوي المؤثر ، العميق ، الشفيف ، الذي يعلن في أقطار الكون الأربعة : وحدانية الله ، وتعالیه ، وتفردہ بالأسماء والصفات والأفعال ، والتي تكتسح بألقها الذي يبهر الأبصار ظلمات الشرك وزيفه وعمته وثقله وانحساره في الجحور الضيقة والزوايا المظلمة التي يقطنها ويزحف فيها الطواغيت والشركاء والأرباب ، وطواوير الأذئاب والمستضعفين والمستعبدين : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽⁵⁾ .

فمع من يتحتم أن يذهب الإنسان ، وإلى أين يفيء إذا أراد التحرر والأمن والسعادة والخلص؟

الله الواحد سبحانه ، الذي يحكم الكون والحياة والوجود ، ويضع أقدارها وموازينها ، ويرسم مساراتها ومصائرهما ؟ أم الشركاء الذين لا يملكون أمر أنفسهم ولا يتمتعون بأية قدرة حقيقية على الفعل والهيمنة والحكم وصياغة المصير ، والذين يتوهمون - لعجزهم - إن الحفر الضيقة التي يستعبدون في دهاليزها الأتباع والعبيد والمستضعفين ، هي الكون كله على امتداده العميق .. البعيد الذي تمسك به إرادة واحدة وحكم واحد وكلمة واحدة هي كلمة الله الذي لا راد لكلماته : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾⁽⁶⁾ .

(1) التوبة 31 .

(2) يونس 18 .

(3) المؤمنون 92 .

(4) النمل 63 .

(5) الحشر 22-24 .

(6) العنكبوت 4 .

أبجديات حول خرافة
فصل الدين عن الدولة

(1)

إن معنى أن يكون الله في السماء إله وفي الأرض إله هو أن يكون صاحب الكلمة الأولى هنا وهناك .. الحاكم والمشرع هنا وهناك .. المالك والمدبر هنا وهناك .. المقدر والمصرف هنا وهناك ..

إن القرآن يقولها صراحة ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ .. والذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة .. أو إعادة الدين إلى سماواته العليا ورفض تدنيته بأحوال السياسة، كما يقولون ، أو تحييد الدين وعدم تسييسه أو زجه بالسياسة ، كما يشتهون ، الذين يعلنون بان ما لله وما لقيصر لقيصر .. إنما يقفون ، شاءوا أم أبوا ، بمواجهة هذه القاعدة القرآنية الصارمة .. الواضحة .. وكأنهم يطلبون من الله سبحانه أن يسحب يديه من العالم وأن يكتفي بحكم ما وراءه .. وحاشاه!!

ألا يدري هؤلاء بأن كلمة (ألوهية) لغة واصطلاحاً تعني الربوبية والحاكمية ، وأن من يكون إلهاً في أي مكان من الكون والعالم ، يكون ربه وحاكمه بالضرورة؟
أفيكون الله إلهاً حاكماً في الكون .. وإلهاً غير حاكم في العالم ، لا لشيء إلا ليفسح الطريق أمام الطواغيت والأرباب والفراعنة والكهنة لكي يستعبدوا الناس (لحسابهم) من دون الله؟! وما هي مصلحة جماهير الناس في أن يتنازلوا عن حريتهم وكرامتهم ومكانتهم في العالم لصالح حفنة من المتألهين في الأرض؟ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾⁽¹⁾ ..

(2)

إن آيات الحكم بدين الله في الأرض .. أي بمنهجه وتشريعه وقوانينه ونظمه .. واضحة، صريحة ، بيّنة : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽²⁾ ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁽³⁾ ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾⁽⁴⁾ ، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾⁽⁵⁾ ، وإن ألف محاولة للتعتيم عليها لن تزيدها إلا وضوحاً بحكم حقيقة الدين نفسه

(1) محمد 24 .

(2) المائدة 44 .

(3) المائدة 45 .

(4) المائدة 47 .

(5) المائدة 49 .

باعتباره طريقا للخلاص ، ورؤية شاملة للكون والحياة والإنسان ، وبرنامجا لصياغة الوجود البشري والتحقق بالوفاق مع المصير .. وإن أية شريعة أخرى يضعها هذا الطاغية أو ذاك ، ويصنعها هذا الفرعون أو ذاك ، ويخطط لها هذا الإله أو ذاك .. لن تزيد الإنسان إلا تفتتا وتمزقا .. ولن تزيد الجماعة إلا تعاسة وشقاء .. ولن تتمخض إلا عن ارتطام محزن بين الوجود والمصير ..

ثم أن هؤلاء الطواغيت كثيرون جدا ، ومناهجهم وأديانهم كثيرة جدا ، وكل منهم يدعي ، لسفاهه وغروره وتألّهه ، إنه هو صاحب الكلمة النهائية في هذا العالم ، وإن طريقه هو الطريق .. فأى من هؤلاء تتبع حشود الناس ، وكيف سيكون الناس - وهذا ما كان فعلا - لو أن كل جماعة منهم انتموا لهذا الطاغوت أو ذاك ، وقاتلوا عنه ، ورفضوا دعوة الفراعنة الآخرين ؟ إن معضلة التاريخ البشري هي هذه ، وإن الحل الأوحده هو هذا : الانتماء لدين الله الواحد .. لصراطه المستقيم الذي لا صراط غيره ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁾ .

(3)

فمن تريدون أن يشرع لكم : الله المنزه عن الميل والظن والهوى ، أم العباد المترعون ميلا وهوى ، الممثلون ظنا والذين تبين لكم في رحلة التاريخ البشري كم هم حريصون على عدم تجاوز مصالحهم الخاصة إلى مصلحة الإنسان ، والتنازل عن مواقعهم المتفردة من أجل جماهير الناس؟

إن الدين يريد أن تكون للناس جميعا ، لأن الله هو خالق الناس جميعا ، وربهم وإلههم .. والطواغيت يريدونها لهم أولا ، ولحفنة ممن يسبحون بحمدهم ويعززون سلطتهم في الأرض ثانيا .. ولا شيء وراء هذا وذاك ..

أما أن يكون الدين لله حيث يتساوى الناس جميعا وتفتح أمامهم سبل الحياة الحرة العادلة، المتوحدة ، الكريمة .. وأما أن يكون للطاغوت حيث الفتنة التي لن ينجو من ذيولها أحد .. الطاغوت ومن يسكت على حكم الطاغوت ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾⁽²⁾ .

(1) الأنعام 156 .

(2) الأنفال 25 .

(4)

إن المسألة في جوهرها صراع بين تحرير الإنسان من تأله الطواغيت وبين خضوعه لألوهيتهم وطغيانهم .. ليس ثمة تفسير آخر للدين .. وما كان الله سبحانه وتعالى ليدع عباده يضرِبون بغير هدى ، ويندفعون عبر رحلة التاريخ فوضى ذات اليمين وذات الشمال لكي ما يلبثوا أن يقعوا في مصيدة الاستعباد والإذلال ..

إن الفراعنة ينتظرون في كل زمان ومكان لكي يضرِبوا ضربتهم ، ولكي يبنوا على تيه الجماعات والأمم والشعوب مجدهم المدعى وتجبرهم المرتجى .. إن الدين هو التحذير الذي يضرِب به الله سبحانه وجوه هؤلاء الطواغيت على أيدي رسله كي لا يسترسلوا في طغيانهم ويعمهاوا في غيهم .. وهو التحرير لجماهير الناس من كل ما يمسّ كرامتها ومكانتها وتفردها على العالمين .. وهو منهج حياة وبرنامج عمل لن يضل من ينتمي إليه ويعمل من خلاله .. إنه يوصد الأبواب أمام لعبة الطغيان ومأساتها .. فإن لم يدخل الدين ساحة الفعل والتحقق والمجابهة والصراع .. فمن يوقف الفراعنة عند حدهم ؟ من يردهم على أعقابهم ؟ من يجردهم من سلاحهم ويكشف كيدهم ؟

إنه ليس ثمة حل وسط .. فإما أن يكون الدين فاعلا في التاريخ ، معتمدا كل الأدوات التي تمكنه من أداء مهمته بما فيها (السياسة) و (الدولة) ، واما أن لا يكون على الإطلاق .. فليس ثمة معنى لأن يعبد الله في هذا المبنى أو ذلك .. في هذا الجامع أو الكنيسة ، بينما عباد الله في الخارج يستعبدون ويستضعفون ويعبدون بالقسر والإكراه لمدعي الألوهية من الطواغيت والأرباب ..

لقد قالها الفاتحون الأجداد مرارا وسيقولها أحفادهم تكرارا (جننا لكي نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..) إن الدين هو حركة خروج في قلب الواقع من حال إلى حال، ولن يتحقق ذلك إلا بأن يمارس المنتمون للدين حقهم في تنفيذ هذا العمل التاريخي الدائم.. ما دام هنالك أبدا من تحدّثه نفسه بأن يتسلط على رقاب الجماهير ويكون فرعونها المطاع.. هل يخلو التاريخ من هؤلاء ؟

(5)

إننا إما أن نقبل الدين كاملا أو أن نرفضه مزقا وتفاريق .. وإلا أعدنا لعبة بني إسرائيل التي دمغها القرآن بالظلم والكفر والخزي ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ

مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

إن أي منهج أو قانون وضعي لا يمكن إلا أن يقبل كاملا ، وليس من المعقول أن يقول مواطن ما في أية دولة أنه ليعجبني هذا الجانب من القانون وسألتزم به ، وينفري ذلك الجانب ولن أكون ملتزما به .. إنه حينذاك يعرض نفسه لعقاب السلطة التي تقوم مهمتها على حماية التنفيذ الكامل للقانون .. لماذا ؟ لأن الانتقاء الكيفي سوف يعرض سياسة الدولة وبرنامج عملها للتميع والتناقض ، وسوف يقودها إلى التفكك والدمار ..

أفيكون هذا شأن القوانين والنظم الوضعية ، ولا يكون شأن القوانين والنظم الصادرة من عند الله .. لماذا؟ وكيف يفسر هذا إن لم يكن في رغبة الطاغوت الحثيثة في تدمير الموقف الديني أساسا بكونه برنامج عمل شامل ، وتفتيته وتمزيقه لكي يخلو له الجو فيفرض قانونه الذي لا راد له والذي لن يسمح لأحد بأن ينتقي منه ويختار ؟

لقد حذر القرآن الكريم مرارا وتكرارا من أنه ليس ثمة أي مجال لممارسة لعبة الانتقاء هذه إزاء معطيات الدين ، ووصف من يحاول ذلك بالكفر والمروق .. فالإنسان إما أن يكون مؤمنا بحق ، منتميا لمنهج الله ، وإما ألا يكون على الإطلاق .. ذلك أن الانتماء لسلطتين في وقت واحد يعني بصراحة ووضوح : الشرك بالله واتخاذ أنداد من دونه .. وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلا .. هذا إلى ما يحدثه الأزواج في الانتماء من تمزق خطير على مستوى الإنسان الفرد والجماعة البشرية على السواء ..

إن التاريخ البشري كله هو مصداق لهذا التفتت والدمار الذي يتمخض أبدا عن الشرك بالله ، بهذا المعنى ، وإن دعاة خرافة الفصل يريدونها انتقاء كفيلا وازدواجا في الانتماء ، وشركا بالله في نهاية المطاف ..

إنه إما انتماء لمنهج الله ، وإما رفض له .. ويتهافت . من ثم . موقف أولئك الدعاة من أساسه ، فليس ثمة موقف وسط على الإطلاق ..

(6)

إن (الإسلام) هو الالتزام الديني الأخير والنهائي ، وهو - لذلك - يتميز بالشمولية والامتداد ويتضمن جوهر الأديان السماوية التي سبقته على الطريق ومهدت له ، ومعطياتها الحيوية (الدايناميكية) بعد إطراح سائر النسببات التاريخية ، وبعد هضم هذه المعطيات وتمثلها وصبغها (بصبغة) الدين الأخير .. وأي تصور ، بعد هذا ، أو محاولة لتصوير نوع من التوازي

أو التساوي الرياضي المطلق بين الإسلام وبين الأديان التي سبقته ، إنما هو نكران صريح ، ومرفوض ، لتمييز هذا الدين (الإسلام) ، وخصوصيته ، وتفرده ، ولـ(إلزامه) .. وهو بالأحرى (لعبة) قد تكون دوافعها ساذجة بليدة أو مأكرة خبيثة لتجميد هذا الدين أو عزله أو شل فاعليته باسم موازاته مع الأديان السابقة وعدم التفريق بين ما أنزل الله .. وإنما للعبة يمارسها أدياء خرافة فصل الدين عن الدولة لكي يوحوا للناس عامة وللمسلمين على وجه الخصوص بأن الأديان السابقة ما دامت - في تصورهم الخاطئ المستمد من انحرافات هذه الأديان وليس جوهرها الأصيل - قد فصلت بين الدين والحياة ، وأعطت ما لله وما لقيصر لقيصر ، فإن موازاة الإسلام بها ومساواته معها يمنح القناعة بأن شقيقتها هذا يتوجب أن يترك - هو الآخر - ما لله وما لقيصر لقيصر .. هكذا بهذا المنطق الساذج الماكر في الوقت نفسه .. على طريقة: إذا كانت الرياح الموسمية تسقط أمطارها في اليمن والصومال ، وإذا كانت الهند تتلقى رياحا موسمية .. فمعنى هذا أن اليمن والصومال تلتقيان مع الهند في مناخها جملة .. وربما في نظمها وعاداتها وتقاليدها !!

وإذا كان الله سبحانه ، صاحب الشأن الأول والأخير في الدين ، قد أصدر حكمه الحاسم الجازم بالتفريق المطلق الذي لا يقبل لحاجة ومناقشة وإنكارا .. بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية الأخرى التي سبقته ، رغم صدورهما من منبع واحد .. فما شأن الإنسان؟
أجل .. ما شأن الإنسان!؟

(7)

قد نفهم تشبث الطواغيت بخرافة الفصل بين الدين والدولة لأنها الباب الوحيد الذي يمكنهم من أن يظلوا هناك فوق الناس .. فوق الرقاب .. فوق القرناء والمنافسين .. آلهة متفردة تحكم بما تشتهي وما تريد ، وتعطي ما تشتهي وما تريد ، وتمنع ما تشتهي وما تريد.. ولكننا لا نفهم موقف هذا الحشد الكبير من الناس البسطاء المساكين الذين يصرون على التشبث بالخرافة فلا يزيدهم الإصرار والحماس إلا خضوعا وعبودية واستسلاما ..

أهو الجهل والحماسة أن يختار الإنسان بمحض إرادته الدخول إلى حظائر الأغنام والنعاج ليكون واحدا من القطيع؟ أم هو الإرهاب الذي يرغب المساكين ، بالتلويح بالذبح ، على التشبث بهذا التصور الخاطئ الذي لا يحقق لهم مصلحة ولا يضمن كرامة؟
أم ماذا؟

أما الكتاب والمنقون الذي يسخرون أقلامهم لتأكيد الخرافة والدفاع عنها ، فهم ولا ريب بين ضال أو جاحد تدفعه نفسه المظلمة ، لا عقله المضيء ، إلى مواقع الباطل ، وهم قلة على كل حال ، وبين صنيعه أو مأجور تغريه (النقود) فيمارس بيع الأفكار بالمزاد ، ويمنحها لمن

يدفع أكثر .. هنالك حيث يستوي . كما يقول أحد الشعراء المعاصرين . الفكر بالخذاء .. وما أكثرهم!!

(8)

إذا استخدمنا التعابير المعاصرة فإن الدين (ستراتيجية) والسياسة (تكنيك) يخدم (الستراتيجية) ويذل الصعاب أمام أهدافها الكبرى..
الدين حركة والسياسة أداة ..
الدين منهج عمل شامل والسياسة طرائق للتنفيذ ..
وفي كل الأحوال لا نجد ثمة ما يدعو للفصل بين القطبين ، بل على العكس ، تحتم ضرورات التنفيذ والفعل والتحقق ، التكامل بينهما ..
إن (الدولة) ضرورة محتومة للدين إذا ما أريد له أن يقول كلمته في العالم وينفذ برنامجه في الأرض..

وإن (الدين) ضرورة محتومة للدولة إذا ما أريد لها أن تكون في صالح الإنسان من أجل عالم أفضل وغد سعيد .. هنالك حيث يتحرر الإنسان ويتحقق الوفاق المرتجى بينه وبين سنن الحياة والعالم والكون ..

وإن الذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة لا يفهمون في الدين ولا في الدولة ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾⁽¹⁾ .

(1) المائدة 49-50 .

دعوة
إلى الصعود

سذج هم أولئك الذين يتصورون الرجوع إلى مواقع الحق (رجعية) والتحرك صوب مواقع الباطل (تقدمية) .. بالطريقة التي تحسب بها المسافات والمساحات .. أي بالمسطرة والفرجال .. سذج لأنهم لا يستطيعون إدراك أن الحياة أو أية تجربة فيها إنما هي أكثر عمقا وتعقيدا من أن تكون مجرد مساحة مسطحة تقاس بالسنتمترات أو الأمتار ..

وسذج لأنهم لم يفهموا البعد الحقيقي للحركة التاريخية ، رغم وضوحه وبعده عن الخفاء .. إن مسار الأمم والجماعات والشعوب صوب الأحسن والأرقى كان رهين دوما بالالتفات إلى الوراء للتعلم من التجربة .. لدراسة مفردات الخطأ والصواب وفرزها من أجل تجاوز أكبر قدر من الأخطاء لحساب معطيات السلب والإيجاب للتحقق بعوامل الصحة والديمومة والعافية ..

وإلا فإنه التهور والاندفاع الأعمى الذي يقود إلى البوار والدمار ..

وما كانت الجهة التي تتحرك إليها القيادات التاريخية بمثابة تقدم إلى الأمام دوما رغم أن هذه القيادات كانت تقول هذا وتلح عليه وتصرخ به من أجل منح وجودها مبررات فلسفية تزيدها قدرة على البقاء والتسلط والطغيان ..

كانت تقول هذا بنعاجها .. ولكن التاريخ كان في كثير من الأحيان يقول خلاف هذا بوقائعه الأكثر ثقلا وإقناعا ..

وإلا فما الذي حدث بالنسبة لمسيرة النازية والفاشية ؟ كان هتلر يقول إنه جاء بأمر من التاريخ لكي يقود بالعنصر الآري حركة العالم ويحمي حضارته ويكون وصيا عليها .. وكان موسوليني يؤكد حتمية رجوع روما لقيادة حضارة البحر المتوسط والتقدم بها إلى الأمام .. وكان يصرخ في خطابه الملتهبة : (سنرفع راياتنا فوق النجوم) وقد وجد في فلسفة هيغل التي تعطي مبررات مطلقة لتصرفات (البطل) ، مطيته المرتجاة .. كان هيغل يقول (إن لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى وحتى المقدسة منها بدون اكتراث ، وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة لا بد أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويحطم الكثير من الأشياء التي تقف في طريقه .. هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي) .. ومع تبرير تصرفات البطل كان هناك تبرير فلسفي مواز لتصرفات الدولة .. وموسوليني كان يكشف عما في قلب هيغل حينما كان يتحدث عن الدولة (إن الدولة هي المطلق حين تقارن بكل الأفراد أو الجماعات إن توسع الأمة عرض جوهري للحياة ، ونقيضه هو علامة التردى والانحطاط) ..

لقد كانت الدولة بالنسبة لهيغل قانونا بذاتها .. (إنها العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته والذي لا يقر بأية قواعد مجردة للخير والشر ، والمخجل والوضيع، والاحتيايل والخديعة) وهكذا فإن اللجوء إلى كل أنواع الوسائل مهما كانت منافية

للأخلاق يعتبر أمرا مشروعا إذا كان من أجل الدولة إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته (ديالكتيكية هيغل)⁽¹⁾ .

وماذا كانت النتيجة؟

إنه من خلال مطرقة (البطل) وسندان (الدولة) .. من خلال اعتماد العنف المتشنج والتحقق للأخلاقي بالقوة للإعلان عن (العرض الجوهري للحبوية) وتجاوز نقيضه (الذي هو علامة الترددي والانحطاط) .. من خلال هذا وذلك لحق الدمار الذي يعرفه الجميع بالإنسان وبحضارته على السواء .. ولم يكن الأمر في جانبه تقدما بأي شكل من الأشكال ..

والاستعمار القديم نفسه كان يجد من الفلاسفة والمفكرين من يبرره ويمنحه الخلفية الفكرية ويصوره حركة حضارية تقدمية يتولاها وينفذها الرجل الغربي الأبيض إزاء العالم كله .. ونعرف جميعا ماذا فعل الاستعمار وكيف تعامل مع الشعوب والبلدان التي غزاها واستعمرها .. ونعرف كذلك الدمار الشامل الذي ألحقه بها على كل المستويات .

أهي حركة تقدمية .. بمجرد أن يعلن مؤيدوها والمنتفعون بها هدفها التقدمي فيخدعوا بها جماهير الناس ؟

وماذا بصدد الاستعمار الجديد بجناحيه الغربي والشرقي ؟

لن يكون على صورتيه بأكثر من عملية (تسخير) تريد بها أمريكا وروسيا تحقيق المزيد من الكسب ، والتحصن بمزيد من عوامل القوة والنمو والديمومة ..

وقد بلغ من انكشاف العملية أن امتدت مسألة التسخير هذه حتى إلى دائرة الحلفاء أنفسهم .. الأمر الذي ولد سلسلة يعرفها الجميع من الأفعال وردود الأفعال بين القطبين الكبارين وبين توابعهما الصغار (المسخرين) .. وكلنا يعرف محاولات الهيمنة والاستنزاف التي سلطتها أمريكا على دول أوروبا الغربية وتكتل الأخيرة بمواجهة عملية الاحتواء ، ويعرف . كذلك . محاولات التذويب والإذلال والامتصاص التي مارستها ولا تزال روسيا الشيوعية إزاء حليفاتها في أوروبا الشرقية ، وانتفاضات هذه بمواجهة التسلط الروسي .. في يوغسلافيا .. في المجر .. في جيكوسلوفاكيا .. في رومانيا .. في بولندا ..

وأمریکا وروسيا كانتا تعلنان في كل الأحوال أن ما تفعلانه وتطمحان إليه لا يعدو أن يكون تنفيذا أمينا لمطالب التاريخ وضرورات التقدم الحضاري .. إياها!!

في يوم ما كان المغول والقوط والهون والفايكنغ والوندال والصليبيون أيضا يتقدمون لاكتساح العالم .. وخفقت راياتهم في مساحات واسعة من آسيا وأوروبا .. ولكن اندفاعاتهم تلك ما

(1) أنظر بالتفصيل عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ، ص68-82 (ترجمة كاظم الجوادي ، الدار الكويتية للطباعة والنشر) .

كانت تقدما .. ما كانت سوى الخراب والدمار الذي حاق بدول وحضارات كانت قد تألقت يوما ،
وحققت للعالم - فعلا - خطوات تقدمية واسعة صوب الأمام ..

وإذا أخذنا برأي القائلين بأن الزمن يطرح عبر صيرورته الدائمة مذاهب وفلسفات ورؤى
أكثر تقدمية ونضجا من تلك التي سبقتها .. إذا أخذنا بهذا الرأي لم يبق هناك مذهب واحد على
الأرض ، وفلسفة واحدة في أنحاء العالم إلا ويحكم عليها بالرجعية ، لأنها ستغدو بمضي الزمن
في حيز الماضي وسوف تبرز إلى الوجود مذاهب وفلسفات أكثر حداثة .. ها هنا تصبح المادية
الديالكتيكية نفسها عقيدة رجعية بعد إذ مضى عليها أكثر من قرن من الزمن ظهرت عبره
عشرات ، بل مئات من المذاهب والعقائد والفلسفات والأفكار ..

من خلال هذه النسبية الساذجة لن يتبقى هناك شيء يستحق الالتزام ، ويقتلع الإنسان
من جذوره .. يفقد وزنه الحقيقي وارتباطه بجاذبية الأرض ، ويظل معلقا في الفضاء .. يدور
بعينه كالأبله بمواجهة شاشة الزمن حيث يلفّ شريط القدم والحدوث ، وحيث تغدو أشد
المعطيات حداثة .. أمرا قديما .. بعد ساعة أو سنة أو عقد .. أو قرن من الزمان!!

وعلى سبيل المثال (.. فإن ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ويصفانه (بالرجعية)
أي رجوع للخلف والوراء مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ولا بمشاكل لا تتكرر ، إذ
هو للطبيعة البشرية بمالها من خصائص أينما وجدت وفي أي وقت كانت ، وهدفه أن يحول
دون الانحراف في السلوك سواء في المال أو في العلاقات البشرية . بينما ارتبطت الفلسفة
الماركسية بمشاكل اقتصادية معينة وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ليس لها
طابع الاستمرار وهي ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التي تبدلت تماما في القرن
العشرين . أفلا يوصف ذلك الذي ينادي بالماركسية اللينينية ، وقد اختلفت الأوضاع والظروف
الآن ، بأنه رجعي وأنه يريد أن يعيد عجلة القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر؟ إن الماركسي
(التقدمي) يعيش في صورة الأمس بعد أن حجب عينيه بالتعصب البغيض لاتجاه فلسفي انتهى
اعتباره، عن رؤية التغيير الذي يحدد صورة اليوم والذي سيحدد صورة الغد)⁽¹⁾.

وإذا ما أردنا أن نقرب المسألة لهؤلاء السذج واعتمدنا منطق التشبيه بالمنظور والملموس،
لأنهم لا يستطيعون إدراك المجردات الذهنية على ما يبدو ، قلنا بأن نزول جبل ما للوصول إلى
هدف يكمن في قلب الوادي ربما يمثل تقدما لتحقيق مكسب ما ، وهو أمر سهل إلى حد كبير ،
ولكن محاولة تسلق الجبل ثانية لدى مدهامة خطر ما للتحصن به ضد عوامل السلب والإفناء ،
أمر أكثر صعوبة بكثير .. ولن يقدر عليه إلا الذين أوتوا حظا من القوة والإرادة والعزم على
المضي صوب الخلاص بأي ثمن كان ..

(1) د. محمد البهي : تهافت الفكر المادي التاريخي ، ص34-36 (دار الفكر - بيروت) .

إن العودة لتسلق الجبل ليست رجوعاً إلى الوراء .. ولكنها في حقيقتها تقدم من أجل التحصن والمقاومة ومجابهة تحديات الفناء ..

ولقد كان الإسلام وسيظل هذا الجبل الذي يعصم الأمم والجماعات والشعوب من فيضانات الفساد والخراب والتفكك والتعاسة والشقاء .. تلك الجماعات التي انسأقت يوماً وراء هذا الزعيم أو ذاك، واندفعت ، بنداواته المغرية التي تعرف (الفلسفة) كيف تغطي ما تتضمنه من زيف وخداع ، صوب أهداف بدت للوهلة الأولى تقدمية .. ولكنها ما لبثت أن تكشفت عن السراب .. قالوا لها : أنظري .. هنالك .. صوب الوادي .. حيث الجنات الخضر والنعيم المقيم .. فهرعت إلى حيث أشار هؤلاء ، وغادرت مواقعها السامقة في الجبال المنيعة .. و(انحدرت) صوب الجنة الموهومة فلم تجد شيئاً .. وإذ أحاطت بها الذئاب من كل جانب ونادى أبناءؤها المخلصون إلا منجى لها إلا بالرجوع إلى الجبل .. بالصعود إلى قممه بالأحرى .. تصور بعض الناس لسذاجتهم أو صور لهم شياطين الأانس ، لضمان مصلحة ما ، أن محاولتهم هذه لا تعدو أن تكون (رجعية) قد لا تصل بهم إلى ما يحبونه ويبتغونه .. تلك هي لعبة المكر والسذاجة ..

وقد آن للإنسان المسلم أن يعي أبعاد اللعبة ولا تخدعه بعض المصطلحات التي وجهها الحواة والدجالون غير وجهتها ونفخوا فيها روحاً غير روحها ..

إن الجبل السامق ينادينا أن نصعد إليه ثانية .. أن نشد العزم ونشذ الهمم ونتوكل على الله .. ونتحرك صوب المرتقى الصعب .. وإلا أكلتنا ذئاب العالم التي ما تداعت علينا يوماً كما تتداعى علينا هذه الأيام .. وغدونا قصعة يولم عليها الجوعى والطامعون ..

إن جماعة أو أمة لا تعرف كيف تحمي نفسها من عوامل الإبادة والتفكك والإفناء أخرى بها ألا تكون ..

فهي بين أن يراد لها هذا لكي يولم عليها فتكون قد أرادت العمى وبين أن تختار هذا بنفسها فتكون قد آثرت الانتحار ..

ولن تكون لعبة المصطلحات بقادرة على ان تطمس على أعيننا بشاعة العاقبة وهول المصير المفجع ..

ويظل (الجبل) يدعونا أن نرتقي إليه .. إذا أردنا البقاء .. فإنه لا عاصم لنا من أمر الله .. إلا أمر الله..

الكاريكاتير القرآني

نعم .. وإن في القرآن لعشرات من الصور والعروض (الكاريكاتيرية) يرسمها كتاب الله على طريقته الفنية المعجزة ، بكلمات قلائل لا تعدو أصابع اليد الواحدة .. كلمات قلائل ولكنها تمنحنا بضرباتها المركزة ، المرسومة ، النقائض الأساسية في الموقف البشري ، فتجسدها لنا كما لو كانت رسما أو نحتا !!
فلنعين بعضا من هذه الصور ..

(1)

يقول فرعون لأتباعه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾⁽¹⁾ فكأن أنظار الناس جميعا ، ممن ابتلوا بحكم فرعون وألوهيته المزيفة ، لا يسمح لها بالعمل إلا بعد أن تستحصل جواز مرور إلى العالم في عيني الفرعون نفسه .. ما يراه تراه .. أو ، بعبارة أوضح : ما يريد لها أن تراه .. تراه.. وما لا يريد .. لا تراه .. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾!!
فإذا ما تذكرنا أن الرؤية هاهنا لا يعنى بها المشاهدة الخارجية للأشياء .. أي النظر فحسب ، ولكنها تعني ما يعقب الرؤية من اتخاذ موقف شخصي إزاء الأشياء والأحداث ، تمليه العاطفة أو الهوى أو المصلحة أو الوجدان أو الظن أو التخمين .. أدركنا أن فرعون يريد أن يقول للناس : إن عليكم ألا تفكروا وتتخذوا مواقفكم ، وتختاروا ، إلا من خلالي .. من خلال ما أفكر به وما أتخذه وما أختاره .. وبعبارة أخرى إن عليكم أن تجمدوا فكركم ، وأن تكفوا عن اتخاذ المواقف ، وأن تتوقفوا حالا عن الاختيار .. لأنني .. أنا.. فرعون .. ربكم الأعلى .. أنا الذي سأفكر لكم ، وارسم لكم المواقف ، وأنا الذي سأختار لكم ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

وسواء أكان فرعون مقتنعا بصواب ما يدعو إليه ، ويرغمهم عليه ، أم غير مقتنع ، فالأمر سواء .. والمهم أن عليهم ألا يروا ويفكروا ويختاروا إلا من خلاله .. وبه ..
أثمة أكثر وضوحا في خطوط الصورة ، لو رسمت بالألوان ، أو نحتت على المعادن والصخور ، من هذه الكلمات ؟ إنها تجعلنا نحزن على ما مني به أتباع فرعون وكل فرعون من عبودية مطلقة وإذلال كامل ، تمسخ فيه إنسانية الإنسان ويطمس على عقله وإرادته ووجدانه ، ولا يتبقى منه إلا أجهزة حسية ، من بصر وسمع ولمس ، يستخدمها الطغيان ، أدوات فحسب لتمرير رؤيته .. وتنفيذها!!

وتجعلنا نضحك ، في الوقت نفسه ، والسخرية هي بداية الرفض ونهايته أيضا ، من الصيغة التي يريد أن يتحقق بها الدكتاتور .. في كل زمان ومكان ، كما يرسمها لنا الكاريكاتير القرآني :

تقف أمة بكاملها ، وقد استأصل أبنائها - بطريقة ما - عقولهم وإرادتهم ورؤيتهم الخاصة، وطمسوا على معالم شخصيتهم.. تقف طوابير ، بصمت مطبق ، وكأن على رؤوسها الطير .. وواحدا أثر واحد يتقدم إلى سدة فرعون .. ينحني انحناءة كاملة ثم يتلقى الأمر بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا .. تنفيذاً حرفياً لأمر الطاغية .. ينسحب ، بعد انحناءة أخرى، ويذهب إلى مهمته ..

يتقدم الآخر .. لكي يريه الفرعون ما يرى .. ويهديه إلى سبيل الرشاد!! وهكذا حتى نهاية الطابور ..

وتتكرر العملية كلما أحبت جماعة من المواطنين أن تفكر في شيء أو تقدم على فعل شيء ..

لابد أن يقف كل واحد منها في مكانه من الطابور .. وينتظر دوره!!

(2)

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ﴾⁽¹⁾ .

انظروا : ها هي أمة بكاملها تفقد القدرة على الرؤية ، وتستلب إرادتها ، وتمحى الملامح الشخصية لكل واحد من أبنائها .. تستل من تكوينهم أفكارهم ، ومطامحهم ، وأحلامهم، تمسح حتى بصمات أصابعهم .. لا يتبقى لهم أيما وجود متميز .. فيفقدون ثقلهم ، ويخف وزنهم بالتالي ..

وإنها لصورة تجسم السخرية بالكلمة .. حتى لنكاد نلمس شخوصها ونرى حركتهم رأي العين : الخفة والارتفاع في الهواء ، كان ليس لهم أي ثقل يتعاملون به مع جاذبية الأرض .. ومع الخفة تأرجح ذات اليمين وذات الشمال .. لا يستقرون على شيء .. وبإشارة من فرعون الطاغية ، يتحركون كيفما يشاء هو لا ما يشاءون هم .. يذعنون ويطيعون لكل أمر يصدره إليهم، ويتجهون حيثما مد أصبعه ..

ونتصور الطاغية وهو يجلس منتقها على عرشه يلعب على أمته ، أو بالأحرى يلعب بها .. بسهولة ومقدرة تثير الإعجاب .. إلى اليمين فتندفع إلى هناك .. يسار ، فتتحول صوب اليسار .. وقوفا ، فتتجمد في أماكنها .. لا يكلفه ذلك أي جهد حقيقي فهي أخف وزنا من أن

(1) الزخرف 54 .

تكلفه شيئاً .. ليس ثمة أي ثقل في عقولها وأفئدتها .. لقد بذل جهده الصعب يوم قام (بعملية) استئصال الوزن وتبديده .. أما وقد نجحت العملية واستخف قومه ، فإن طاعتهم العمياء مسألة غاية في السهولة ، وهي تأتي جزاء وفاقا على الجهد الشاق الذي بذله أول مرة ..

ولو لم يكن هؤلاء يملكون الاستعداد للتضحية بثقلهم الحقيقي رغبا أو رهبا ، لو لم تكن شخصية كل واحد منهم على درجة محزنة من التفكك والضعف والهزال .. لو لم يكونوا قد اختاروا ألا يكون لهم أيما موقف أو رأي أو وجهة نظر في أية قضية أو مشكلة .. لما استطاع فرعون أن يسوقهم إلى هذا المصير المخزي .. ولما استخفهم ، أو استخف بهم ، هذا الاستخفاف !!

أما وقد امتلكوا الاستعداد للأمر .. فإن فرعون عرف كيف يجردهم من كل ثقل ، ويحيلهم إلى اصفارٍ لا تتضمن أية قيمة إيجابية .. وأن يفعل بهم ما يشاء .. فاستخف قومه فأطاعوه .. إنها كلمات ثلاث ، ولكن اللوحة التي ترسمها بالأحرف تظل شاخصة على مدى الأبصار لأنها تتضمن صيغة (كاريكاتيرية) تعرف كيف تجسد الموقف وتبرز عيوبه وتناقضاته بالخطوط والظلال والألوان، فتجعلنا نضحك منه ونرثي له ..

(3)

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾⁽¹⁾ .

لكنما يأتي النداء من فوق .. من قدرة فوق قدرة الإنسان ، ورؤية فوق رؤية الإنسان .. تنظر إلى وادي النمل البشري فتري واحدة منها تتضخم وتتضخم وتتبعث وتتطاير .. ثم ماذا تكون؟!

وما تلبث اللطمة القاسية ، اللطمة الساخرة ، أن تنقض ، على الخد المتصعر .. على الرأس المتطاير .. على الجسد المتمطي .. لكي تلفت الطاغية ، الذي يتحرك عند أسفل جدار في العالم ، إلى حجمه الحقيقي ، وتعرف طوابير الأقدام المخدوعين به ، الذين خيل إليهم - لضآلتهم وحقارتهم - إنه فعلا يملك القدرة على أن يمتد بطوله صوب السماء ، وأن يستعلي عليهم وهم يتحركون كالحشرات عند أقدامه .. تعرفهم بهذا الذي خدعوا به ..

إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا .. وماذا يكون الإنسان .. أكبر إنسان في العالم .. أكثر الناس انتفاخا وتضخما وامتداداً وتطاولا .. ماذا يكون إزاء طول الجبال وشموخها .. وعمق الأرض وأغوارها السحيقة ؛ لا شيء .. لا شيء ..

(1) الاسراء 37.

إن الصورة تسمّر أنظارنا على هذا المشهد المترع بالسخرية والجهل والغباء والاحتقار
مشهد الإنسان الطاغية وهو يقف قبالة واحد من جبال العالم .. يتناول فلا يعدو إحدى حجارته
الملقاة على السفح ، يمد جسده ويمطيه إلى آخر نقطة يستطيع فيها جسده أن يبلغها طولاً .. فلا
يتجاوز صخرة تافهة أسقطتها الأعاصير من هذا الجانب أو ذلك من واجهة الجبل فلم تحدث فيه
إلا كما تنقص قطرة الماء المتبخرة عن البحر الكبير .. ومصيبة أتباعه أنهم - لما يعانونه من
قزمية - ينظرون إليه وحده معجبين بامتداده ، ولا ينظرون إلى الجبل نفسه .. ربما لأنهم لا
يرون إلا طاغيتهم وحده .. وربما لأنهم يخافون أن يلتفتوا عنه إلى أي شيء آخر غيره ،
وبخاصة إذا كان الالتفات لغرض المقارنة .. وربما لأنه قد استلب حريتهم وقدرتهم على الحركة
والالتفات .. وربما لأنه أترع قلوبهم وعقولهم بالخوف والرعب ، وأفقدتهم أية قدرة على القيام
بحركة ذاتية متصورين أن أية مقارنة بينه وبين أي شيء آخر إنما هي خروج عن أمره وتمرد
على ربوبيته ..

ولكننا - نحن - ننظر إلى الصورة القرآنية المؤثرة من الخارج فنرى الطاغية ونرى
الجبل، نرى طول هذا ونرى ارتفاع ذلك .. تناول هذا وشموخ ذلك .. فلا نعاين إزاء كتلة الجبل
الهائلة سوى شيء لا يكاد يرى .. كتلة صغيرة تافهة ملقاة عند أسفل الجبل فأنى لها الطموح إلى
أن تسامت الجبل يوماً وتبلغ طوله ؟ إنها مسألة مستحيلة كاستحالة دخول الجمل سم الخياط ..
مبهظة ثقيلة قاسية ، لأنها كالكابوس لا يمكن أن تتمخض عن أية نتيجة حتى لو مضى عليها
ملايين السنين من المط والتناول ، فكيف وعمر الإنسان لا يعدو الخمسين أو الستين؟!
ونراه .. الطاغية .. وهو يضرب بأقدامه الأرض .. بعد إذ أدرك عجزه عن موازاة الجبل
.. يضربها بعنف وعصبية ، محاولاً خرقها وتفتيت قشرتها الصلبة .. ولن يستطيع ..
وأتباعه الأقرام ، داخل الصورة ، ينظرون إليه معجبين ، وقد سمرت عيونهم وعقولهم
بجسده العملاق ، وهو يتناول ويتناول ، وبأقدامه القوية وهي تضرب الأرض .. فما يزدادون
إلا تضاًؤلاً وإعجاباً !!

وننظر نحن من خارج الصورة ، فياخذنا المنظر المؤثر ويجعلنا نضحك على تقاهة
الإنسان ونبكي لمأساته .. فهو التناقض القاسي الذي يضحك ويبكي!

(4)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْأَنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾⁽¹⁾ .

إذن .. فقد انكشفت اللعبة وتمزقت الأستار .. وأية لعبة لا تتكشف يوم الحساب؟ ها هم الطغاة .. والأرباب .. والمتألهون .. والفراعنة .. يقفون طوابير على حافة جهنم .. خاشعين ، ناكسي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء!! يقفون منتظرين دورهم في الدخول إلى حيث يكتونون بالنار التي لم يوقفهم لهيبها وسعارها عن ممارسة ألوهيتهم هناك ، يوم كانوا يسرحون في الأرض ويمرحون .. يقفون الآن وهم يرتجفون خوفا وهلعا .. إنهم بعد دقائق أو لحظات سيؤخذون من نواصيهم التي تناولت على الله سبحانه كذبا وغرورا ، ويجرون من أقدامهم التي مشوا بها طويلا على رؤوس العباد .. ويرمى بهم في النار التي ازداد تلمظها وهي ترى هذا الصيد الثمين يقف على بعد خطوات!!

ومن الصف الطويل ، يقفز بين الحين والحين ، أناس لا نكاد نراهم ونميزهم إلا بصعوبة .. إنهم أصغر حجما بكثير من هؤلاء الأرباب ، وهم مضغوطون إلى درجة لا يكادون يرون معها لكثرة ما مارسوه هناك في الحياة الدنيا من خوف وجبن وملق ونفاق وصغار والتصاق بالطغيان .. يتقافزون من هنا وهناك ، منادين بأصوات لا تكاد تسمع هي الأخرى : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْأَنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ !!

وإنه لمنظر مضحك حقا .. وإن الإنسان ليظل يضحك حتى تدمع عيناه .. وهو يرى إلى هؤلاء الأقبام يتقافزون بين أقدام الأرباب ، فالناس . أغلب الظن . محشورون حسب أوزانهم؟! ولكن الذي أطمع هؤلاء الأتباع المتضائلين بسادتهم وجعلهم يطلبون هذا الأمر المضحك : أن يجعلوا هؤلاء السادة من الأرباب والطواغيت تحت أقدامهم ، وهم على ما هم عليه من ضخامة وامتلاء .. ما رأوه على هؤلاء من هلع وذلة وانكسار وخوف ، سرت قشعيرته الباردة الصفراء إلى عروقهم فأخذوا يهتزون ويرتجفون .. رغم أنهم قريبون من لفح النار!!

إذن فهؤلاء هم السادة الكبار .. هؤلاء هم الآلهة والأرباب .. لقد تبددت الكبرياء .. وضاع الجبروت .. وهامهم يرتجفون بأسمالهم التي تفوح منها رائحة الزفت والقطران .. ويحيطهم الخزي ، وتكتسحهم المذلة ..

وإنها لفرصة نادرة لأتباعهم الصغار أن يتمردوا عليهم وأن يطلقوا سراح حشود من المشاعر والأحاسيس والانفعالات كانت قد احتبست في طبقات بعيدة من نفوسهم يوم كانوا يمارسون مهنة العبودية والفناء في نوات أسيادهم .. وهم يريدون الآن أن يكتفوا مقتهم وغضبهم بحركة ذات دلالة : أن يجعلوا اولئكم السادة تحت أقدامهم!!

ولكن رؤيتهم التي فقدت قدرتها على الإبصار في الحياة الدنيا ، تصيبهم الآن ببعض العناء ، وسط دخان النار وهول الحساب ، فلا يكادون يرون مرة أخرى آلهتهم وأسيادهم على طولها وامتدادها ، فيكون نداؤهم المضحك ذلك : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْأَنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾!!

ويظل نداؤهم ذلك معلقا دون جواب .. فهم أتفه وأحقر من أن يستجاب لندائهم .. من أن يرد عليهم مجرد رد .. ولو بالنفي!! وتلك لفظة مقصودة في كتاب الله .. تستكمل بها الصورة (الكاريكاتيرية) ونحن نتخيل هؤلاء .. بل نراهم ونسمعهم يرفعون النداء تلو النداء .. فلا يرد عليهم أحد !!

(5)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾⁽¹⁾..

إن القرآن الكريم . هنا . يتعمد أن يختار أصغر الحشرات وأحطها شأنًا ، لكي يضرب بها المثل ويتحدى طواغيت بني آدم وآلهتهم وأربابهم وأكبرهم حجما ، أن يخلقوا مثلها : الذباب !! إنه يذهب في تجسيم التناقض ، وفق الأسلوب (الكاريكاتيري) إلى حده الأقصى لكي يهز الناس ويضحكهم في الوقت نفسه !!

فهنا يطرح القرآن نداءه المتحدي ، الساخر : أيها الأرياب الذين رفعوا قاماتهم إلى السماء ، يريدون أن يخرقوا الأرض وأن يبلغوا الجبال طولًا .. أيتها الآلهة التي ورمت غرورا فجاوزت حجمها الحقيقي مئات المرات .. أيها الوضاعون الذين يحتكرون المعرفة العليا لأنفسهم فيفكرون للناس ويشرعون لهم ..

ها أنا ذا أتحداكم .. أن تخلقوا بعوضا أو ذبابا .. أكثر من ذلك ، أتحداكم أن تستردوا هبأة تافهة سلبكم الذباب إياها..

أيها الأرياب ، أيتها الآلهة ، أيها الوضاعون .. أخلقوا - إن استطعتم مجتمعين - ذبابا .. استردوا منه ما سلبكم إياه .. ضعف الطالب ، أيها الأرياب ، والمطلوب .. ضعف الطالب والمطلوب ..

إن القرآن الكريم ، ها هنا ، لا يضحكنا فحسب ، ولكنه يبكينا .. يقينا .. إنه ينتزع الدموع من أعيننا ..

ونعرف .. ونحن نتقلب بين الضحك والبكاء .. لماذا اختار الله جل وعلا ، أن يتحدى
الآلهة والأرباب .. بالبعوض والذئب !!

عن
العالم في تاريخنا

(1)

(العالم) في تاريخنا هو الرجل الثوري ، هو قطب المعارضة وداعية التغيير ، هو حامل المسؤولية أمام الله والجمهير ..
ونسلم دائما عبارة (سكوت العلماء) وهي تنص على عبر هذا التاريخ حاملة دلالتها الخطيرة على دور هذه الطليعة الرائدة ، وعلى ما يمكن أن يتمخض عنه إيجابيا أو سلبا ..
لقد كان صلاح المجتمعات الإسلامية أو فسادها مرهونا بأسباب عدة ، وكان موقف العلماء واحدا من أهم وأكبر هذه الأسباب ..
ويستطيع المرء بمجرد قراءة سريعة في التاريخ أو استعراض عابر لحشود العلماء الذين تحدثت عنهم كتب التراجم أن يتأكد من حجم هذا الدور وأن يلتقي برجال لعبوا دورهم بمستوى مسؤوليتهم ووقفوا بمواجهة السلطة ناقدين معترضين مقومين الاعوجاج بالكلمة ، وبالسيف حتى، إذا اقتضى الأمر ..

(2)

أبو حنيفة اعتقل ، وأنس بن مالك ضرب بالسياط ، واحمد بن حنبل اضطهد وعذب، وابن تيمية سجن .. وانتهى الأمر بعدد آخر من العلماء إلى النفي من الأرض .. والقتل .
ولم يكن هؤلاء العلماء يعملون في الفراغ ، كانوا يملكون فكرا قويا وكلمة مؤثرة استمدوها من العقيدة التي حملوا مسؤوليتها ، فالتفت حولهم جماهير الناس ، وسمع بهم الداني والقاصي فقصدهم ووضعوا أنفسهم وعقولهم تحت تصرفهم ..
وكان الرجل منهم يملك بإشارة واحدة أن يحرك هذه الجماهير صوب الهدف من أجل إيقاف باطل وإحقاق حق ..
كان ابن حنبل يحرك جماهير سامراء لمجابهة السلطة بكلمة واحدة تصدر عنه ..
واستطاع سبط بن الجوزي أن يحشد جيشا من الشاميين لقتال الصليبيين وأن يدفع الناس لتقديم كل ما عندهم ، والنسوة اللواتي لا يملكن شيئا إلى قص شعورهن وتقديمها لجما للخيل الغازية بقيادة الرجل .. وخرج ابن تيمية على رأس حشد من المتطوعين لقتال المغول .. وذهب العز بن عبد السلام إلى مصر لكي يبيع سلاطينها ويعيد الأموال العامة إلى الأمة .. حتى إذا قرر أحدهم نفيه من الأرض خرجت وراءه جماهير المصريين فعاد لكي يرغم السلطان على قبول رأيه!!!

ومواقف أخرى كثيرة معروفة وقفها (العالم) عبر تاريخنا الطويل .. وأن المرء ليذكر بإعجاب تلك الواقعة التي هي أشبه بالكاريكاتير المؤثر : دخل أحد السلاطين جامع بني أمية في

دمشق .. كان ثمة عالم يجلس هناك ، ماذا رجاه .. لم يكثر لدخول السلطان ، ولم يكلف نفسه حتى عناء سحب رجاه .. أراد السلطان أن يشتري احترامه فبعث إليه بعد قليل صرة من الدنانير مع أحد أمرائه .. رفض العالم استلامها قائلاً : من لا يسحب رجاه أمام السلطان لا يمد يده إليه!

وفي معظم الأحيان كان العالم يتربع المكان الأعلى ويرفض الدنيا حتى ولو كانت نزوله درجة واحدة في السلم العالي .. وحتى ولو كان هذا النزول ضرورة قد يملها حضور ملك أو سلطان ..

وقد قدر بعض هؤلاء الحكام الأمر قدره فأعانوا عليه ، وأتاحوا للعالم أن يظل هناك في القمة ..

ثمة رواية مؤثرة أخرى أشبه بالكاريكاتور أيضاً : كان الخليفة هارون الرشيد يتمشى مع أحد العلماء ، وفجأة سحب يده بعصبية ، كمن كان قد اقترب خطأ ما وانتبه إليه على حين غرة .

فوجئ العالم بحركة الخليفة فلما رأى هذا ملامح الدهشة المتسائلة على وجه العالم قال: لقد كانت يدي ، لدقائق ، فوق يدك .. وما هكذا يجب أن تكون .. إن يد العالم لا تعلوها إلا يد الله !

(3)

ولا يدري المرء كيف تحول الكثير من العلماء في العصور الأخيرة وبقدرة قادر لكي ينزلوا درجات السلم ويقفوا هناك عند آخر درجة فيه مرتضين الدنيا والهوان .

لا يدري كيف تحول هؤلاء إلى أدوات بأيدي الحكام .. مجرد وسائل يستخدمونها لتعزيز سلطتهم وإلقاء رداء الشرعية والقبول على وجهها القبيح .

لا يدري كيف أصبح العالم ندا لرجل الدين الغربي ، لا يعرف إلا ممارسة شعائره ولا يؤدي إلا فروض الطاعة والاحترام ..

نسي الرجلان كلمة (لا) فكأنها غير مستعملة في لغات العالم ولا مكتوبة في القواميس .. إذن فلنرجع إلى وقائع التاريخ كرة أخرى لكي يتأكد لهم أن أجدادهم قالوها بوجه الحكام وتحدثوا عن الحقيقة كما هي ، كما يريد الله ورسوله والضمير المسلم النقي ، لا كما يريدونها الحكام مغطاة بألف قناع !

(4)

دخل أبو بكره على الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان فقال : (اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك ، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدا ومن الآخرة إلا قربا ، وعلى إثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علم لا تجوزه ، فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك أن يلحقك الطالب . وأنا وما نحن فيه وأنت زائل ، والذي نحن صائرون باق إن خيرا فخييرا وإن شرا فشرا)⁽¹⁾ .

ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية فقال له : (ما اسمك ؟ فقال : اسمي معاوية . قال : لا بل اسمك أحدىثة فإن جئت بشيء فلك شيء ، وإن لم تأت بشيء فلا شيء لك يا معاوية .. إن عملت خيرا جزيت به وإن عملت شرا جزيت به . يا معاوية إن عدلت على أهل الأرض جميعا ثم جرت على رجل واحد مال جورك بعدك)⁽²⁾ .

(5)

ونظر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك يوما إلى رجل يطوف بالكعبة له كمال وتمام فسأل عنه فقيل له هذا طاووس بن كيسان اليماني وقد أدرك عدة من الصحابة فأرسل إليه سليمان فأتاه فقال : (لو ما حدثتنا ، فقال : حدثني أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ (إن أهون الخلق على الله من ولي من أمر المسلمين شيئا فلم يعدل فيهم) . فتغير وجه سليمان طويلا ثم رفع رأسه فقال : لو ما حدثتنا . فقال : حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله عز وجل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾⁽³⁾ (4) .

وحج سليمان بن عبد الملك ، مرة ، ومعه العالم المعروف رجاء بن حيوة ، فلما قدم مكة قال : إن هاهنا رجلا فأرسل إليه يحدثك يقال له طاووس . فأرسل إليه فجاءه فدخل عليه فجلس فسكت وسكتوا ثم قال : أتدرون من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟ قالوا : لا ، قال : عبد أشركه الله في ملكه فجار في حكمه ! فاستلقى سليمان على فراشه وقام طاووس . قال رجاء : واظلم علي البيت خوفا على طاووس حتى توارى)⁽⁵⁾ .

(1) أبو الفرج بن الجوزي : المصباح المضيء في خلافة المستضيء 38/2-39 (تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، وزارة الأوقاف ، بغداد - 1977) .

(2) نفسه 40/2-41 .

(3) البقرة 281 .

(4) المصدر السابق 54/2-55 .

(5) المرجع السابق 56/2 .

وقال سفيان الثوري (أدخلت على أبي جعفر المنصور - الخليفة العباسي - بمنى فقلت له: اتق الله ، فإنما أنزلت هذه المنزلة وصرت بهذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعا . حج عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر دينارا ، وكان ينزل تحت الشجر . فقال لي أبو جعفر : أتريد أن أكون مثلك ؟ قلت : لا تكن مثلي ولكن كن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه . فقال لي : أخرج⁽¹⁾ .

وقال عباد بن كثير لسفيان الثوري : (قلت لأبي جعفر المنصور حدثني عن الأموال التي اصطفتيموها من أموال بني أمية ، فوالله لئن كانت صارت إليهم ظلما وغصبا لما رددتموها إلى أهلها الذين ظلموا وغصبوا ، ولئن كانت الأموال لهم لقد أخذتم ما لا يطيب إذا دعت يوم القيامة بنو أمية بالعدل جاءوا بعمر بن عبد العزيز وأنتم أمسّ رحما برسول الله . فكن أنت قد مضت من خلافتك ست عشرة سنة وما رأيت خليفة قبلك بلغ اثنين وعشرين سنة، فهبك تبلغها فما ست سنين تعدل فيها ؟ فقال لي : يا أبا عبد الله ما أجد على هذا الأمر أعوانا . قلت : علي أعوانك بغير مرزئة ، أنت تعلم أن أبا أيوب المورياني (وزير المنصور) يريد منك في كل سنة بيت مال ، وأنا أجيئك بمن يعمل بغير رزق ويتصدق على المسلمين بنفسه ، آتيك بالأوزاعي تقلده كذا وبسفيان الثوري تقلده كذا وأكون أنا بينك وبين الناس على مظالمهم أبلغهم عنك وأبلغك عنهم بلا دينار ولا درهم . فقال : حتى استكمل بناء مدينة السلام وأخرج إلى البصرة وأوجه إليك . فقال له سفيان : ولم ذكرتني ؟ فبكى عباد وقال : والله ما أردت إلا النصيحة للمسلمين)⁽²⁾ .

(6)

وقال اسحق بن الفضل : (إني لعلى باب المنصور وإلى جنبه (كاتبه) عمارة بن حمزة إذ طلع أبو عثمان عمرو بن عبيد على حمار فنزل عن حماره ونحى البساط برجله وجلس دونه.. وما أن سمع أمير المؤمنين بمكانه فما أمهل حتى أمر بالمجلس ثم انتقل إليه هو والمهدي ، فلما دخل عمرو بن عبيد سلم عليه بالخلافة ، فرد عليه وما زال يذنيه حتى اتكأ فخذته وتحفى به . ثم قال : يا أبا عثمان عظني ! فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ إلى قوله ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾⁽³⁾ . قال : فبكى بكاء شديدا كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة وقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك ،

(1) المرجع السابق 134/2-135 .

(2) المرجع السابق 135/2-136 .

(3) الفجر 1-14 .

وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإني أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشد من بكائه الأول حتى رجفت جنباه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقا بأمرير المؤمنين قد أتعبته منذ اليوم ، فقال عمرو : وبمثلك ضاع الأمر وانتشر لا أبالك وماذا خفت على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله ؟ فقال له أمير المؤمنين : يا أبا عثمان أعني بأصحابك استعن بهم : قال : أظهر الحق يتبعك أهله . قال : قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك . قال : لا حاجة لي فيها . قال : والله لتأخذنها ، قال : والله لا أخذها . فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ فترك المهدي وأقبل على المنصور فقال : من هذا الفتى ؟ فقال : هو ابني محمد وهو المهدي وولي العهد . فقال : والله لقد سميت اسما ما استحقه عمله ، ولقد مهدت له أمرا أمتع ما يكون به ، أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهدي فقال : يا ابن أخي إذا حلف أبوك وحلف عمك فإن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال المنصور : يا أبا عثمان هل من حاجة ؟ قال : نعم قال : وما هي ؟ قال : لا تبعث إلي حتى آتيك . قال : إذن لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني . قال : فاستحفظه ، وودعه ونهض قائما⁽¹⁾ .

(7)

وحكى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان قال : (كنت أكتب لموسى بن بغا (القائد التركي العباسي) وكنا بالري وقاضياها إذ ذاك احمد بن بديل الكوفي ، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك ، كان له فيها سهام ، ويعمرها ، وكان فيها سهم ليتيم ، فصرت إلى احمد بن بديل وخاطبته في أن يبيع عليه حصة اليتيم ويأخذ الثمن فامتنع وقال ما باليتيم حاجة إلى البيع ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه فيحدث عن المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه . فقلت : انا نعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها ، قال : ما هذا لي بعذر في البيع . قال فأدرسته بكل لون وهو يمتنع فأضجرني فقلت له : أيها القاضي إلا تفعل فإنه موسى بن بغا ، فقال لي : أعزك الله تبارك وتعالى ! قال فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك . وفارقت فدخلت على موسى فقال لي: ما عملت في الضيعة ؟ فقصصت عليه الحديث فلما سمع أنه الله بكى وما زال يكررها ثم قال : لا تعرض لهذه الضيعة⁽²⁾ .

(1) المرجع السابق 137/2-141 .

(2) المرجع السابق 225/2-226 .

(8)

وكلنا نعرف ما فعله قاضي الأندلس المنذر بن سعيد البلوطي الذي تزعم المعارضة ضد إسراف الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في بناء الزهراء .. لم تأخذه في الله لومة لائم وراح ينصح الخليفة تارة ويعرض به في المساجد تارة أخرى . وغضب الناصر من هذه المعارضة وأقسم بالألا يصلي الجمعة خلف المنذر أبدا ، ولكنه لم يحاول عزله أو البطش به ، حيث لم تكن حرية الكلمة قد وئدت بعد .

يروى أن المنذر دخل على الخليفة ذات يوم وهو منهمك مع المهندسين في بحث خطط الزهراء ، فوعظه المنذر بأن هذا ليس من صميم الحكم ، فأنشد الناصر معتذرا :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالس البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيواكم ملك محتته حوادث الأزمان؟
إن البناء إذا تعاضم شأنه أضحي يدل على عظيم الشأن

لكن المنذر رد عليه بقوله :

يا بناني الزهراء مستغرقا أوقاته فيها أما تهمل؟
لله ما أحسنها رونقا لو لم تكن زهرتها تذبل

ودارت الأيام دورتها وتحقق ما ذهب إليه المنذر بن سعيد إذ لم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاما ثم لعبت بها أيدي الخراب في أيام الفتن التي قامت في أواخر الدولة الأموية . فإذا ما تذكرنا ما تؤكد المصادر الأندلسية من أن الناصر بنى هذه المدينة تكريما لذكرى جارية له تسمى الزهراء ، وأنه اشتغل في بنائها جيش من العمال واستنفدت ثلث إيرادات الدولة لمدة سبعة عشر عاما وأن بناءها استغرق أربعين سنة .. وإذا ما عرفنا أنه في مقابل هذا كان هناك جيش من الجوعى والساخطين في طول البلاد وعرضها .. أدركنا ما الذي تعنيه معارضة المنذر ، وكم هي ضرورية ، وكم كانت تقتضيه من جرأة وشجاعة في الوقت نفسه حيث لم تكن نقطة الارتطام بالسلطة أمرا عاديا! (1) .

هذه الوقائع مجرد شواهد فحسب ، وهي غيضة من فيض ، وهناك غيرها ، مما لا يتسع له المجال ، مئات وألوف ..

(1) عن تفاصيل الحادثة أنظر د. احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي ص414-418 (دار النهضة العربية ، بيروت - 1971) .

فلماذا اختار الكثير من علمائنا موقعا غير الموقع الذي اختاره الآباء والأجداد؟ أتراه
الوباء القادم من أوروبا النصرانية .. نأخذ عنهم التقاليد والممارسات التي هي ليست من عقيدتنا
في شيء ونرفض أن نشبههم فيما يُعد من صلب ديننا وعقيدتنا ؟ أم تراها سياسة تحويل العالم
الحر إلى موظف مغلول ، ملاحق بالخوف والجوع؟
أغلب الظن أنها كذلك ..

فما لم يتحرر العالم ويفك ارتباطه المذل بالسلطة فإنه لن يقدر على صعود درجات السلم
ثانية لكي يتربع في القمة ، تماما كما كان آباؤه وأجداده ، من أجل أن تراه وتسمعه وتلتف حوله
ال جماهير ..

بين
(سيد) و (المودودي)

تبلورت في ذهن (سيد) عبر ربع قرن من التعامل مع الإسلام عقيدة وفكرا وحركة وسلوكا ، مجموعة من المفاهيم والقيم والتصورات كان يجد تأكيدها وتعزيزها كلما توغل أكثر في قراءة الإسلام ومعايشة كتابه وسنته .. حتى لقد غدت تلك المفاهيم أشبه بالبدايات لكثرة ما التقى بشواهدا ومؤشرات في معطيات الإسلام .

ويعد كتاباه الكبيران (الظلال) و (المعالم) الذي انبثق عنه وجاء بمثابة تركيز للعديد من مقولاته .. يعد هذان المؤلفان أكثر كتب سيد تعبيرا عن هذه المسألة بحيث تشكل مجموعة المفاهيم الكبرى التي طرحها (سيد) العمود الفقري لهذين العاملين وجملتها العصبية إذا صح التعبير .. وإنما لتغطي المساحة الأوسع من الظلال ، وتكاد تكون أشبه بالخلفية ذات الإيقاع الذي يركز عليه عمله الكبير ذلك ..

وعلى مستوى المنهج فإن (سيد) في هذين الكتابين بدا (مهندسا) من طراز أول .. وكان يمارس تنفيذ المعمار الهندسي في التقابل والتناظر وطرح التصاميم الأساسية وتحديد المنظور الأولي أو النهائي ، من زوايا مختلفة بتمكن تام .. وإذ كان (المعالم) بمثابة تركيز بالغ الدقة لمقولات (الظلال) ، فإنه يعد ولا ريب عملا هندسيا فذا في ميدان هندسة الأفكار ، وهي مسألة من بين العديد من المسائل التي تمنح الكتاب قيمته الكبرى ..

في (الظلال) و (المعالم) نلتقي بمجموعة من التصاميم العقيدية المقنعة حتى الأعماق لأنها مستمدة مباشرة من معطيات الكتاب والسنة برؤية نافذة وبصيرة قل ما توفرت لأحد من المفكرين ، ولأنها بنيت بحس هندسي صارم لا يطرح المقولة على غير هدى ولكنه يحسب لكل كلمة أو عبارة ، أو فقرة فيها حسابها ، ويضعها في مكانها المناسب من تركيب المقولة ، كما أنه يحسب في الوقت نفسه لكل فكرة جزئية حسابها ويحدد لها مكانها بالضبط في مجموع البنين التركيبي للأفكار ، فإذا نحن إزاء عمل معماري يبهر العقل ويهز الوجدان بتناظره وتماسكه وتوزيع جزئياته عبر سلسلة من المقابلات ومن خلال رؤية شمولية وقدرة فذة على التركيب .

إن (سيد) ، على سبيل المثال ، يطرح إحدى المفاهيم الكبرى في الإسلام .. وهي ما يمكن تسميته بالتوحيد الحركي الشمولي ، يطرحها في عشرات المواضع ومئاتها .. وبصيغ هندسية صارمة تؤكد صدق مقولتها باستمرار .. إن الله جل وعلا ، هو الإله والرب ، وهو الحاكم والمشرع ، وأن أية دعوة تصدر عنه ويحملها نبي من أنبيائه عليهم السلام ، إنما هي منهج انقلابي شامل ، يجيء لكي يحول بين (الطاغوت) وبين تعبيده الناس لحاكميته وتشريعته ، لكي يحرر الإنسان ويرده لحكم الله وشريعته .. ومن ثم يبدأ مسلسل الصراع الدامي .. الصراع الحاسم ، بين الطرفين .. وليس ثمة حل وسط .. لا مساومة ولا تنازلات ولا أية عملية ترقيع أو تلفيق .. إن الدين حركة انقلابية جاءت لكي تحقق كلمة الله في العالم ، وتقلب الأوضاع الشاذة ،

الجائزة ، المزيفة على رؤوس أصحابها .. بل لكي تقطع هذه الرؤوس إذا اقتضى الأمر ، وتفتح الطريق أمام حرية الإنسان وكرامته التي أرادها له الله ، لحظة خلقه ، لأداء دوره المرسوم .
إن الرجل ، وهو يتعامل مع الآيات والفقرات والمقاطع والسور القرآنية ، تتكشف أمامه هذه المفهومة الكبرى ، بطريقة عجيبة ، بحيث أن الكثير من الآيات التي لم تكن لتمنحنا هذا البعد ونحن نمر عليها المرة تلو المرة .. إذ بها . على يديه . تكشف عن نفسها بشكل يفوق حدود القناعة ، وتندرج ضمن التصاميم الهندسية التركيبية من أجل بناء هذه المفهومة الكبرى ..
وما يقال عن هذه يمكن أن يقال عن العديد من المفاهيم الأساسية للعقيدة الإسلامية والتي نجدها موزعة ومهندسة في (الظلال) و (المعالم) .. ولنا بصدد الوقوف عندها في هذا المقال الموجز الذي يستهدف حديثاً مقارناً سريعاً عن مفهومه ... (التوحيد الحركي الشامل) ..
إن (سيد) ليس أول من طرح هذا التصور ، ولا آخر من سيطرته ، بل لقد وقف العقل الإسلامي عبر عصوره المختلفة أمام هذه الحقيقة وتحدث عنها بصيغ مختلفة ومناهج شتى .. إنها واحدة من قواعد الإسلام الكبرى .. بل إنها أشبه بعموده الفقري الذي يقيمه ويمنحه الشخصية والقدرة على الحركة ..

ولكن ميزة (سيد) أنه مدها إلى أوسع مدى ، وطرحها . كما قلنا قبل قليل . وفق تصاميم هندسية باهرة ، وامتلك رؤية شمولية كانت تمكنه من تجميع المفردات القرآنية من هنا وهناك لكي تصب في هذا البحر التصوري الكبير .. وكانت تتيح له فهماً للسيرة ينسجم تماماً وهذه الرؤية الأساسية ..

وميزته - أيضاً - أنه طرحها في الوقت المناسب تماماً ، وجابه بها عصر الطاغوت الذي أخذ يشرع للناس ما لم يأذن به الله ، ويتعبد لهم بهذا التشريع لنفسه وسلطته .. وهز بها قيماً (علمانية) تفصل بين الله وسياسة الناس .. قيماً طغت على عقولهم وأفئدتهم بحيث أصبحت ، لشدة تكرارها وتأكيدها ، بمثابة البدايات ..

وكان (سيد) يشكل الحقائق التي يقدمها وفق أشد الصيغ إقناعاً وتأثيراً ، وكان يغير - بذلك - قناعات الجماهير المثقفة وبيداهاتها الفكرية ويعيد صياغتها من جديد .. كان يمثل تهديداً مباشراً للطاغوت الذي تعتمده وتستخدمه قوى العالم الكبرى ومراكزه القيادية .. وهكذا فإن إعدام الرجل - أغلب الظن - لم يكن عملاً ارتجالياً .. ولكن خطط له بحساب!!

ومهما يكن من أمر فإن (سيد) يلتقي مع (المودودي) في هذه المفهومة ، كما في كثير غيرها من المفهومات ، ولكي لا تكون هذه العبارة مجرد كلام يقال ، يمكن لأي واحد منا أن يقوم بقراءة مقارنة بين مؤلفي (سيد) هذين وبين عدد من أبحاث (المودودي) وبخاصة (الجهاد في سبيل الله) و (شهادة الحق) و (المصطلحات الأربعة) و (الإسلام والجاهلية) .. إنهما يستقيان من نبع واحد ، ما في هذا شك وهو أمر بدهي ، ولكنهما في الوقت نفسه يمتلكان رؤية

واحدة لمعطيات هذا النبع ، ويتعاملان معها بمنهج واحد . وكلاهما يحسب لهندسة الأفكار حسابها ، وي طرح قناعاته وفق أشد الصيغ منطقية وتأكيدا .

ونحن نستطيع أن نلمس ذلك عبر صفحات (الظلال) من البدء حتى المنتهى ، ولكننا سنقف . على سبيل المثال . عند صفحات محدودة فحسب لا تتجاوز الخمسين ، من تفسير سورة الأعراف ، لكي نجد هذا التأكيد المستمر ، المقنع ، المرسوم ، لمفهوم (التوحيد الحركي الشامل) ، ولكي نجد المفكرين الكبارين . كذلك . وهما يلتقيان على التصور الواضح الذي لا غش فيه ..

إن (سيد) يقتبس ، في إحدى مقاطع تفسيره لسورة الأعراف هذه الفقرات من كتاب أبي الأعلى (الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية) (وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية لا يخفى عليه أن المسألة - التي تتوقف عليها قضية ملامح الشؤون البشرية وفسادها - إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها . وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأنه لابد للركاب أن يسافروا - طوعا أو كرها - إلى تلك الجهة نفسها . فكذا لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرا ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون من أدوات تكوين النظريات والأفكار وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطبائع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعي ، وتحديد القيم الخلقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه ، فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم ، وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها . وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تريبو . إن لم تحقق وتنقرض آثارها . وأما إذا كانت هذه السلطة - سلطة الزعامة والقيادة والإمامة - بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها، وتتمو السيئات ويستفحل أمرها ..

(والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزل الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم ﷺ ثم أن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة

على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر اتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتربين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأساسه . والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضا الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفرضية وتقاوس عن القيام بها .. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى أن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعرة - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية ، والذي يضعف القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد .. ثم انظروا إلى ما كسب (الجهاد) من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى أن القرآن الكريم ليحكم (بالنفاق) على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض . ذلك أن (الجهاد) هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزانا يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين . وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق .. فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول في إيمانه ، مرتاب في أمره ، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟

(إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفذ جميع قواه ومساعدته في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضي عند الله ، الذي له صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها)⁽¹⁾ .

ثم يعود (سيد) عبر الصفحات التي أشرنا إليها لكي يؤكد (التصور) نفسه من أكثر من زاوية ومن خلال رؤية واضحة كشعاع الشمس ، ومنطق قاطع كالكسكين .. إنه يقول .. تكشف

(1) الظلال ، جزء 8 ، ص 561-563 (الطبعة الخامسة المنقحة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت-1967).

مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله وبين الجاهلية كلها . وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين ، وكيف يحس فيه الخطر على وجوده كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت ! إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون (يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق علي ألا أقول على الله إلا الحق ، فأرسل معي بني إسرائيل) .. تبين مدلول هذه الدعوة إلى (رب العالمين) إنه رد السلطان كله إلى الله برد عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين ! وبناء على هذا المدلول طلب موسى إطلاق سراح بني إسرائيل. فإنه إذا كان الله رب العالمين ، فما يكون لعبد من عبيده - وهو فرعون المتجبر الطاعي - أن يعبدهم لنفسه ، فهم ليسوا عبيدا إلا لرب العالمين .. إن رد الربوبية كلها لله سبحانه معناه رد الحاكمية كلها له . فالحاكمية هي مظهر ربوبية الله للناس . وهم من العالمين . وهي تتجلى في العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده . فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية .. أو بتعبير آخر لهذه الحاكمية .. وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره ، لا يحكمهم بشرعه .

(ولقد أدرك فرعون وملؤه خطر الدعوة إلى (رب العالمين) ، وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون - وسلطانهم المستمد منه - فعبروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يخرجهم من أرضهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَرْضَ﴾ .. وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى رب العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحداً هو انتزاع السلطان من يد العبيد - الطواغيت - ورده إلى صاحبه - سبحانه - وهذا معناه - من وجهة نظرهم - الإفساد في الأرض ! أو كما يقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها : إنها محاولة لقلب نظام الحكم ! ومن وجهة نظر الطواغيت الجاهلية التي تغتصب سلطان الله ، أي تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان - يكون هذا قلباً لنظام الحكم ، لأن نظام الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد . بينما الدعوة إلى رب العالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد ! وكذلك قال فرعون للسحرة الذين بهرهم الحق فآمنوا برب العالمين ، وخلصوا ربة العبودية له بهذا الإعلان : إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم . وهددهم بأبشع العذاب والنكال : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

(ومن الجانب الآخر كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين ، وأسلموا لله وحده ، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها .. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت . إنها المعركة على العقيدة . لأن هذه العقيدة تهدد سلطان

الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين ، بل بمجرد إعلان أن الله رب العالمين ! ومن ثم قالوا لفرعون ردا على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكروه في المدينة ليخرجوا منها أهلها - وهو مرادف للاتهام في الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم ! : ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا... ﴾ .. ثم لجأوا إلى ربهم الذي آمنوا به فتمردوا على العبودية لغيره قائلين : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .. فكان هذا فرقانا جعله الله في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام فيها .

(.. إن (الطاغوت) يعلم علم اليقين أن الدعوة إلى (رب العالمين) هي بذاتها حرب عليه بإنكار شرعية قيامه من أساسه ! وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان أن لا إله إلا الله أو أن الله هو رب العالمين ، إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها وهي في مثل هذه الحالة لا تؤذيه! لأنها لا تعنيه ! فأما حين تأخذ عصبه من الناس هذه الكلمات جدا بمدلولها الحقيقي ، فإن الطاغوت الذي يزاول الربوبية - بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله ، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم لله - لا يطبق هذه العصبه ، كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين ، وإعلان السحرة المؤمنين أنهم آمنوا برب العالمين .. وكما ظل هو والملا من قومه مصرين على رد هذه الدعوة ، والآيات تتوالى عليهم ، والنكبات كذلك تتوالى عليهم ، من الجذب والآفات والجوع والبلاء . ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية الله رب العالمين . لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم عن مزاوله هذا السلطان المغتصب الذي يعبدون به الناس لغير رب العالمين!)⁽¹⁾ .

ويقول (إن أولئك الذين يقولون : أنهم مسلمون .. لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم أو التقاليد - وما أولئك بالمؤمنين . فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره ..)⁽²⁾ .

ويقول (إن الحياة لا تستقيم وتصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد ، والعبودية لأله واحد .. وأن الأرض لتفسد حين لا تتمخض العبودية لله في حياة الناس .. إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد ، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة ، وشهوات البشر الصغيرة!.. إن الفساد

(1) المرجع السابق ص574-575 ، 576 .

(2) المرجع السابق ص588 .

يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد - من دون الله - وما صلحت الأرض قط وما استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده . عقيدة وعبادة وشريعة . وما تحرر (الإنسان) قط إلا في ظل الربوبية الواحدة..(1) .

ويقول (.. إن الإنسان لا يخدم سيدين ، ولا يعبد إلهين . فمن كان عبدا لله فما يمكن أن يكون عبدا لسواه .. إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان ، تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شر البشر ، ومن هوى البشر ، ومن تقاليد البشر ، ومن حكم البشر . وإعلان ربوبية الله رب العالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله ، ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس .. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية الله - واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون ! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله ، وقانونهم غير شريعة الله . إنما هم في دين حاكمهم ذاك في دين الملك لا في دين الله .. ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين .. لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون ، وقلب نظام حكمه ، وإنكار شرعيته ، وكشف عدوانه وطغيانه..(2) .

(ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوة الخطيرة ؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين ؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه ؟ وعلام يقوم الملامن قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسومه وحكمه ؟ علام يقوم هذا كله إن كان الله هو (رب العالمين)؟

(إنه إن كان الله هو (رب العالمين) فلا حكم إلا لشريعة الله ، ولا طاعة إلا لأمر الله .. فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن ، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يرتكز إلى أمره ؟ إن الناس لا يكون لهم (رب) آخر يعبدهم لحكمه وشرعه وأمره ، إن كان الله هو ربهم إنما يخضع الناس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون .. فالحاكم - بأمره وشرعه - هو رب الناس ، وهم في دينه أيا كان !

(كلا إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب . ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة ! وفرعون وملؤه لا يخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يعلنها موسى . بل أنهم ليعلنونها صريحة . ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة ، باتهام

(1) المرجع السابق ص 596-597 .

(2) المرجع السابق ص 599-600 .

موسى بأنه ساحر عليم : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّادًا تَأْمُرُونَ﴾ إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة.. إنها الخروج من الأرض .. إنها زهاب السلطان .. إنها إبطال شريعة الحكم .. أو .. محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث !

(إن الأرض لله ، والعباد لله . فإذا ردت الحاكمة في أرض الله ، فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى ، فيعبدون الناس لهذه الأرباب ! هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة .. وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة .. لقد قالها الرجل العربي . بفطرته وسليقته . حين سمع رسول الله ﷺ ، يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (هذا أمر تكرهه الملوك) . وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : (إن تحارب العرب والعجم) .. لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عربا كانوا أم عجماء! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها في حس هؤلاء العرب ، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيدا . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد ، ولا في أرض واحدة ، شهادة أن لا إله إلا الله مع الحكم بغير شرع الله ! فيكون هناك آلهة مع الله ! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم (مسلمين).. ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل!)⁽¹⁾ .

ويقول متحدثا عن يدعون (رجال الدين) ! (أنهم محترفون .. يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين ! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله، وإفراده - سبحانه - بالحكمة ، وقام السلطان الطاغوت مقام شريعة الله ، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين ، وكافأهم على الاحتراف ، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يقرون سلطانه باسم الدين! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين!)⁽²⁾ .

ويقول ملقيا الضوء على المدلول اللغوي للربوبية ، فضلا عن مدلولها الواقعي (إن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره ، أو أن له سلطانا في عالم الأسباب الكونية . إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذل ! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه ، وانه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتقضى الأمور . وهذا ما يدعيه كل

(1) المرجع السابق ص 600-601 .

(2) المرجع السابق ص 602-603 .

حاكم يحكم بشريعته وقانونه ، وتمضي الشؤون وتقضى الأمور بإرادته وأمره - وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي - كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له . فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، وكما هو معروف ، إنما كانوا هم يعبدونه بمعنى إنهم خاضعون لما يريد بهم ، لا يعصون له أمرا ولا ينقضون له شرعا .. وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة .. فأیما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه ، وذلك هو تفسير رسول الله ﷺ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ.. ﴾ عندما سمعها منه عدي بن حاتم . وكان نصرانيا جاء ليسلم . فقال : يا رسول الله ما عبدوهم . فقال رسول الله ﷺ (بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم)⁽¹⁾ .

لقد سبر الرجلان ، (سيد) و (المودودي) رحمهما الله ، غور القرآن والسنة .. وعرف كلاهما الكثير من معطيات الحضارة الغربية ومناهجها ، حيث أتيح لكليهما الاطلاع على قسما ت هذه الحضارة والتحدث عنها بحديث العارفين . ويقدر أصالتهما العقائدية ورفضهما العقلاني لمقولات هذه الحضارة بقدر ما أفادا من بعض مؤشراتها وبخاصة بصدد (المنهج) وهما يكتبان ويحلان وينقدان وبينان .. إنهما عقلان منفتحان إلى المدى ، وما كان لهما إلا أن يأخذا (الحكمة) من أي وعاء خرجت .

ومهما يكن من أمر فان ما يؤكد التقاء الرجلين فيما نحن بصدده ، إنما هو التزايد الملحوظ للاقتباس والإحالات التي اعتمدها سيد من مؤلفات المودودي وبخاصة في الطبقات الأخيرة المنقحة من (الظلال) ، وهي دليل منظور سرعان ما يتأكد بمتابعة المساحات الواسعة لهذه الاعتمادات في (الظلال) ، ونبرة الود والإعجاب والتقدير التي يرددها (سيد) في هوامشه (للمودودي) ومؤلفاته مثل (المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي) و (تراجع بتوسع الرسالة القيمة بعنوان ..) و (تراجع البحوث القيمة الدقيقة التي كتبها المسلم العظيم ..) و (الأستاذ المودودي) و (يراجع البحث القيم للأستاذ ..) و (يراجع كتاب .. للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان) و (المسلم الصادق) ..

اعتمد (سيد) على معطيات (المودودي) في إحدى وثلاثين موضعا من (الظلال) ، فإذا استثنينا مؤلفات (محمد قطب) التي تعتبر امتدادا لفكر (سيد) فإن (المودودي) يعد أكثر من نقل عنهم (سيد) من المفكرين الإسلاميين المعاصرين .. وهذه شهادة أخرى فيما تحمله من دلالات: لقاء الرجلين في فهم الإسلام وتمثله .. وغناء المعطيات التي قدمها (المودودي) والتي أتاحت لزميله الشهيد أن يأخذ عنه ، أو يحيل عليه ، في هذا العدد الكبير من المظان .

(1) المرجع السابق ص 609-610 .

والمواضيع التي اعتمد فيها (المودودي) عبر (الظلال) يمكن أن تتبلور في المسائل التالية : مفهوم الدين ، مفهوم الإسلام ، مفهوم الألوهية والربوبية والحاكمية ، مفهوم العبادة ، مفهوم الجهاد ، مفهوم الجاهلية ، الربا ، العلاقات الجنسية ، الأسرة ، الخمر ، والقيم الخلقية . أما الكتب التي تم الاقتباس منها ، أو أحيل عليها للاستزادة من واحدة أو أكثر من المواضيع آنفة الذكر فهي :

- (1) الجهاد في سبيل الله .
- (2) الربا .
- (3) أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة .
- (4) شهادة الحق .
- (5) الحجاب .
- (6) تفسير سورة النور .
- (7) تنقيحات .
- (8) المصطلحات الأربعة في القرآن .
- (9) مبادئ الإسلام .
- (10) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية .
- (11) الإسلام والجاهلية .
- (12) نظرية الإسلام الخلقية .

نقل (سيد) في بعض المواضع فقرات حرفية من كتب (المودودي) آنفة الذكر ، ولا ريب أن اقتباسه في تفسيره لسورة الأنفال عن كتاب (الجهاد) يعد أوسع هذه الاقتباسات (خمس عشرة صفحة من الحجم الكبير) ، وقد قدم لها الشهيد بالعبارات التالية : (.. وبعد فإن هناك بقية في بيان طبيعة الجهاد في الإسلام وطبيعة هذا الدين يمدنا بها المبحث المجلد القيم الذي أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان بعنوان (الجهاد في سبيل الله) ، وسنحتاج أن نقتبس منه فقرات طويلة لا غنى عنها لقارئ يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء الحركة الإسلامية)⁽¹⁾ .

(1) المرجع السابق ص 753 .

هذا إلى أن (سيد) أحال في مواضع أخرى من (الظلال) على كتب (المودودي) لأغراض التوسع والاستزادة معتمدا عبارة (يراجع كتاب ..) أو (يراجع بتوسع كتاب ..) أو (تراجع بتوسع بحوث ..) السيد أبي الأعلى المودودي⁽¹⁾ .

إنه - والحق يقال - موقف يدعو إلى الإعجاب : احترام عقل إسلامي فذ في مصر لنظيره في باكستان ، وعدم تحرجه من الأخذ عن الأنداد بهذا القدر من التقييم والاحترام .. وإنها لشهادة قيمة بحق أبي الأعلى المودودي رحمه الله ، تعلق على الشهادات !

(1) للاطلاع على مظان اعتماد (سيد) لمؤلفات (المودودي) رحمهما الله ، أنظر الأجزاء والصفحات التالية من الطبعة الخامسة المنقحة من (الظلال) التي اعتمدها في هذا المقال : الجزء الثالث ص 432 ، 472 ، 475 ، 480 ، 488 ، 594 ، الجزء الرابع ص 134 ، 280 ، الجزء الخامس ، ص 328-329 ، 330-333 ، 338 ، 351 ، 357 ، 374-375 ، الجزء السادس ص 600 ، 787 ، الجزء السابع ص 282 ، 318 ، 323 ، 328 ، الجزء الثامن ص 460 ، 561-563 ، الجزء التاسع ص 610 ، 753-767 ، الجزء العاشر ص 49 ، 68 ، 124 ، الجزء الحادي عشر ص 375 ، 445 ، الجزء الثاني عشر ص 586 ، 610.

كلمات
في الدين

(1)

في التحليل الإسلامي ، الذي هو المحصل النهائي للحركة الدينية عبر التاريخ ، يغدو كل دين سماوي منهج حياة .. يحكمها ويهيمن عليها بتشريع من عند الله سبحانه يتضمن كل التفاصيل والكليات التي من شأنها أن ترتقي بالحياة البشرية سعدا على طريق الخلافة الراشدة .. منهج شامل للحياة .. ذلك ، باختصار ، هو تعريف كل دين سماوي بعث به الله سبحانه رسله إلى هذا المكان من العالم أو ذاك ، أو إلى العالم كله .. في هذه الفترة من التاريخ أو تلك .. أو عبر التاريخ كله ..

منهج شامل للحياة ، ولذلك حدثت المصادمات الحاسمة بين كل دعوة دينية وبين الوضع العام الذي جاءت لكي (تقلبه) وتعيد صياغته من جديد وفق الأطروحات التي تنزلت من السماء ..

إنه ما من (دين) سماوي إلا وجد قاداته من الأنبياء الكرام أنفسهم يصطدمون ، طال الوقت أم قصر ، مع القيادات الوضعية التي تريد بنظمها وتشريعاتها أن تعبد الناس لزعامتها الجائرة بدلا من تعبيدهم لله .. وإذا كان كل نبي يجيء حاملا معه منشوره الانقلابي المتمثل بالدعوة إلى عبادة الله وحده ورفض عبادة العباد .. بالانتماء إلى حكم الله وحده والانشقاق على حكم الطواغيت .. بالالتزام بتشريع الله وحده والتحرر من نظم العبيد ..

كان لابد من المجابهة والصدام .. فليس ثمة تهاون أو تعايش أو تصالح بين الطرفين .. ليس ثمة أيما جسر يصل بينهما ، ولا أيما فسحة للمساومة وتقديم التنازلات من قبل هذا الجانب أو ذاك .. إنه صراع بين موقفين لا لقاء بينهما على الإطلاق : الحق والباطل .. الهدى والضلال .. الإيمان والكفر .. الاستقامة والالتواء .. النور والظلام ..

إن الحكم إما أن يكون لله .. أو للطاغوت . وما كان لمبعوثي الله سبحانه إلا أن ينفذوا كلمته في العالم أو تنفرد سوائفهم .. وقد كان !!

وتتذكر جيدا .. موسى عليه السلام وقومه وهم يتعرضون لطغيان فرعون تقتيلا وتعذيبا وتتكيبا واستحياء وتصليبا في جذوع النخل وتقطيعا من خلاف .. وعيسى عليه السلام وتلامذته وهم يتعرضون لطغيان قيصر وحملات الإرهاب والإفناء التي سلطها عليهم من كل مكان .. ومحمدا عليه السلام وأصحابه وهم يتعرضون لطغيان الوثنية العربية ومطارداتها وحصارها وتعذيبها المرير ..

موسى وهو يتحدى فرعون : ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾⁽¹⁾ وعيسى وهو يعلن بمواجهة روما : (لقد جئت بالسيف إلى هذا العالم) .. ومحمد ﷺ وهو يجابه الوثنية العربية

بالحسم الذي يليق بجدية الأديان (والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه)..

لقد كانت الأديان السماوية جميعا مناهج حياة جاءت لكي تبني الحياة على عين الله وبتشريعه .. وتعلن انقلابها على نظم الطواغيت والأرباب والكهنة والمشعوذين والزعماء والمتألهين الذين كانوا ، وسيظلون ، يمارسون عملية تشويه الحياة ، وقتلها ، وتخريبها .
كان لابد من الصدام..

(2)

إن الله سبحانه لا يمكن أن يناقض نفسه .. وحاشاه .. وهو القائل في كتابه الكريم ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁾ ... ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾⁽²⁾ .. وهو القائل أيضا في أكثر من موضع ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾⁽³⁾ .. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾ ..

هل ثمة أكثر وضوحا من هذه الآيات بصدد حقيقة الدين ، وكونه (تنظيما) شاملا للحياة البشرية على هذه الأرض وفق تشريع الله .

إن ألوهية الله سبحانه ، أي ربوبيته وحاكميته ، تمتد - بالضرورة - إلى أقطار الكون الأربعة .. تحكم هذا الكون ، وتنظم مسيرته ، وترسم مصيره .. لا يند عليها زمن أو مكان ، أو حتى حيز من زمن أو مكان .. هيمنة مطلقة تمتد إلى الأجرام الهائلة فتسيرها في مداراتها الشاسعة ، وتتوغل إلى قلب الهباءات الصغيرة في قلب الذرة فتديرها في مساراتها التي لا تحس ولا ترى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا أَيْدِيهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽⁵⁾ .

أفيعقل أن تشذ كرتنا الأرضية الصغيرة وعالمنا المحدود عن هذه الهيمنة والحاكمية؟ ولماذا؟ أو يعقل أن تطوي إرادة الله ونظامه السماوات كلها وتترك الأرض تغلت من قبضته لكي يتولاها حفنة من الأرباب الزائفين الذين يسعون بنظمهم القاصرة وتشريعاتهم الملثى بالتناقضات والأخطاء ، وأحكامهم النسبية المنبثقة عن رؤيتهم المحدودة ذات الوجه الواحد ، ومصالحهم ، ومصالح المحيطين بهم والمقربين إليهم فحسب .. يسعون إلى تعبيد الناس لهم من دون الله؟ ثم

(1) الأنعام 3 .

(2) الزخرف 84 .

(3) ياسين 83 .

(4) الزمر 63 .

(5) الأنعام 59 .

.. أيعقل أن يبعث الله أنبياءه إلى العالم لكي يعيدوا (روح) الإنسان إلى مسارها الطبيعي تاركين كل ما عدا هذا لأؤلئكم الأرباب الزائفين لكي يعمقوا الشرخ ، ويزيدوا الفوضى ، ويقوموا بعملية تطويق سهلة ، ميسورة ، لكافة الإنجازات الروحية للأنبياء ما دامت أنها لا تستند إلى قاعدة مادية صلبة ، ونظرة شمولية في العمل ، وتشريع يكفل تسيير كل صغيرة وكبيرة وفق المسار أو الناموس الذي يتوافق وينسجم مع قوانين الكون كله حيث لا حاكم ، ولا مشرع ، ولا مرید إلا الله!؟

أبدا.. ولن يقول بهذا مخلوق يملك ذرة من احترام للعقل البشري .. إنه إذا كان الحكام الوضعيون لا يرتضون إلا أن تخضع كافة الممارسات وسائر الفاعليات في ممالكهم الصغيرة لنظامهم وتشريعهم وحاكمتهم ، ويعتبرون الأخذ عن أي مصدر آخر للتشريع انشقاقا على (شريعته) وتمردا على حاكمتهم ، يستوجب الإيقاف والعقاب .. فكيف تكون حاكمية الله ، خالق الإنسان والعالم ، نسبية محدودة تمتد إلى هذه الجهة من الكون ، وتترك تلك ، وتهيمن بنظامها وقوانينها على هذا الجانب من الحياة وتترك ذلك!؟

إن المنطق الديني يتجاوز هذا العبث الذي يصدر عن الجهل والسذاجة حيناً ، ويرسم بمكر وخبث حيناً آخر لفتح الطريق أمام الانتهازين والدجالين لكي يسوسوا الناس ويتعبدهم على هواهم ومن أجل تحقيق مصالحهم فحسب.. يتجاوز هذا العبث وي طرح مقولاته بالصرامة والجدية والوضوح والحسم الذي يتطلبه الموقف الديني بما أنه صادر عن الله سبحانه ..

إنها مقولة صارمة لا تقبل نقضا ولا جدلا لأنها فوق التناقضات والمجادلات .. ومعادلة دقيقة لا تقبل خطأ لأن قيمتها موزونة .. محسوبة.. ثابتة .. وحقيقة واضحة لا تقبل تشويها وتزييفا لأنها امتداد للسنن والنواميس ..

إن الله سبحانه هو حاكم الكون كله .. ورب الكون كله .. وإله الكون كله .. لن يشذ عن حكمه وربوبيته وألوهيته نيوترون أو إلكترون .. ولا حبة في ظلمات الأرض .. ولا ورقة تسقط من شجرتها .. ولا رطب ولا يابس .. لا يشذ عن حاكميته شيء .. فهل تشذ الكرة الأرضية ، بطولها وعرضها ، عنها؟ هل يشذ بنو آدم الذين سخرت لهم هذه الأرض وينطلقون على هواهم في مناكبها؟ إنه الجهل والسذاجة.. أو المكر والخبث والمصلحة.. وليس ثمة شيء وراء هذا وذلك..

(3)

منذ لحظة هبوط آدم عليه السلام إلى هذا العالم كان (الدين) بمثابة الخلاص الوحيد.. الخلاص على إطلاقه.. الخلاص من التعاسة والشقاء والتمزق والتقاتل والتناقض والاضطهاد والاستغلال والامتهان والجوع والجهل والمذلة .. الخلاص من كل ما من شأنه أن ينزل بالإنسان

درجات عن المكانة الكريمة التي أرادها الله سبحانه يوم خلقه وتكريمه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽¹⁾ .

الخلاص على إطلاقه .. ولن يتحقق هذا إلا بدين شامل يقود الناس عبر الطرق الملتوية المعوجة إلى الصراط .. وكيف يعرف الناس الصراط ويلتزمون السير عليه إلى أهدافهم عبر رحلتهم الأرضية الطويلة المتشعبة المضنية الملئى باحتمالات الانحراف والمروق، إن لم يكن بشريعة شاملة فيها تبيان كل شيء وتتضمن ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^{(2)؟!}

إن مجابهة الانحراف لن تكون بكلمات تقال .. ولا بدعوة مسالمة لتطهير روح الإنسان من الشر والخطيئة ، ولا بدين تقتصر مفرداته على الصلاة والحج والصيام .. لن تكون إلا بتشريع مفصل ، ودعوة شاملة ، ودين يتولى معالجة كل شيء .. وإن تخلص الناس مما يعانونه، وتحريرهم منه ، وصياغة عالم سعيد جدير بكرامة الإنسان ، لن تصنعه إلا حركة تسيير على أرض الواقع وتستمد من ثقله ومواضعاته وسائل قدرتها على الانتقال بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ..

إنها مهمة ثقيلة مبهظة تحتاج إلى جهد مبهظ ثقيل ، وبرنامج عمل مرسوم لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة ، ولا تتسحب من تحت قدميه أرضية العالم بكل ثقلها وصلابتها .. ترى أبعقدور حركة جادة أن تسيير في الفضاء؟

لقد كان الدين ، منذ لحظة هبوط آدم وحتى مبعث الرسول الكريم عليهما السلام ، طريقا للخلاص بهذا المعنى وحده ، وليس بأي معنى آخر على الإطلاق : ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽³⁾ .. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽⁴⁾ .

والدين هو المنهج والشريعة والنظام .. وهو يأتي هنا لتأكيد حقيقة كونه المنهج الوحيد بمواجهة سائر المناهج الوضعية التي تقوم على التحريف والتزييف والتزوير لحقائق الكون

(1) الإسراء 70 .

(2) يوسف 111 .

(3) البقرة 36-39 .

(4) آل عمران 19 .

والوجود والإنسان .. فإما هذا أو ذلك ، وليس ثمة اختيار - ها هنا - بين المنهجين .. بمعنى آخر .. ليس ثمة مجال (للتلفيق) بأخذ هذا الجانب من المنهج الديني وذلك الجانب من المنهج الوضعي .. إذ كيف يكتمل ويتوافق ما هو غير متوافق بطبيعته وبحكم انبثاقه عن مصدرين للمعرفة مختلفين ابتداء؟ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (1) .

فهو اختيار واحد حاسم أخير بين (الصراط) الذي يقود إلى الله لأنه من تصميم الله ، وبين (السبل) التي تفرق الناس عن سبيل الله لأنها من صنع الناس .. وإذا كان الطريق الأول يقود إلى التحرر والكرامة والخلاص .. فإن الطريق الثاني يقود . يقينا . إلى العبودية والامتهان والشقاء .. يقينا ..

ذلك لأن معطيات التاريخ وأطروحاته لا تقول بغير هذا!!

(4)

وقد قيل في ذلك الكثير وكتب الكثير .. ولن نرجع هنا إلى شهادة التاريخ على امتداده ولا إلى أولئك (الشهود) الذين حدثونا عن أزمة الحضارة المعاصرة فأطالوا الحديث⁽²⁾ ، حيث التأكيد الدائب المستمر على حاجة العالم المعاصر للدين ، وعلى أنه (الحل) الوحيد لمعاناته ومرارته وعذابه..

ولكننا سنقف بعض الشيء عند حدث لا يزال قائما ، وهو لا ريب واحد من أشد الأحداث المعاصرة إثارة وأهمية ذلك هو ثورة الطبقة العاملة في بولندا.. نعم الطبقة العاملة .. حيث يفترض أن تعض بنواجذها على النظام الشيوعي باعتبارها صاحبة المصلحة الحقيقية فيه .. أولا وأخيرا .. وباعتبار أن الماركسية تنفيذ تاريخي لإرادة الطبقة العاملة بالذات .. الأمر الذي وجد ضربة قاسية للعمود الفقري للفكر الشيوعي وزرع بذور القلق والشك في صدق المقولات الماركسية ابتداء..

ويبدو أن تحول النظم والأحزاب الشيوعية إلى أدوات هينة لتحقيق أهداف (روسيا) وتبريرها ، وإضعاف طابع (العقائدية) عليها على حساب الشعوب التي حكمت - عن غير اختيار - من قبل هذه النظم والأحزاب .. هو الذي أثار هذه الشعوب بكافة طبقاتها ، بما فيها الطبقة العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية في الشيوعية ، فقامت بسلسلة من الانتفاضات

(1) الأنعام 153 .

(2) سبق وأن عرضت بالتحليل لشهادات عدد من هؤلاء (ولسون ، شينغلر ، تويني ، برناردشو ، جيوروجيو ، ليوبولدفائيس .. إلى آخره) في كتاب (تهافت العلمانية) الفصول 5 ، 6 ، 7 .

والحركات الثورية لتحرر من الهيمنة الروسية التي دمغتها الصين بالإمبريالية (الأمر الذي شهدناه في المجر وألمانيا الشرقية وجيكوسلوفاكيا وبولندا ...).

والذي يهمنى ها هنا ما حدث في بولندا في أواخر القرن الماضي .. لأن فيه بعدا واضحا وملحاً !! بعدا دينيا في كيان حركة عمالية كانت قد ربيت منذ نعومة أظافرهما على المادية والإلحاد !!

نعم .. وليس ثمة في الأمر ما يدهش .. بل أن العكس هو الذي يثير الدهشة .. فلا تستطيع قوة في العالم ، مهما أوتيت من أسلحة فكرية أو إمكانات مادية أو فن في التنظيم ، أن تقتل النزوع الديني في نفس الإنسان فردا وجماعة ، بله أن تحجبه وتضيق الخناق عليه .. لأن هناك في المقابل كل المتاعب والمآسي والمنغصات والمرارات التي تتمخض - بالضرورة - عن غياب الدين .. وهي تملك من الثقل والامتداد والتأثير ما يدفع الناس دفعا إلى البحث والخلص بالرجوع ثانية إلى مرافئ الطمأنينة والأمن والتوازن والاستقرار .. المرافئ الآمنة التي ساقتهم بعيدا عن رياح المادية والإلحاد وعواصفهما المترعة بالغبار والتراب ..

وفي يوم ما قام العمال الثائرون بصلاة جماعية من أقصى البلاد إلى أقصاها .. وفي يوم آخر ذهب زعيمهم (ليش فاليسا) لمقابلة (البابا) في الفاتيكان وركع عند قدميه لكي يتلقى منه البركات .. فضرب بسلوكه هذا مقولات الماركسية عرض الحائط لأن المفروض والبدیهي أن يذهب إلى الكرملين لكي يركع هناك ويأخذ مكانه في الطابور الطويل منتظرا دوره في إلقاء التحية وأداء مراسم التبجيل لجنثمان الراحل العظيم (لينين) .. ولن يستطيع أحد من تلامذة (لينين) أن يقول أن (فاليسا) شخص بورجوازي مهرطق ، لأن الطبقة العمالية في طول البلاد البولونية وعرضها هي التي اختارته وباركته .. وإنها لمحنة بالنسبة للفكر والنظام الشيوعيين ، وتحد تصعب الاستجابة له . ولكن من قال بأن الدين قد قضى عليه إلى الأبد وأنه لن يرجع ثانية وثالثة ورابعة لكي يتحدى المادية والإلحاد ويمتحنهما ، ويقف قبالتهم قويا، راسخا ، عميق الجذور ؟

ولقد جاء انتخاب البابا يوحنا ، وهو الرجل البولوني ، بمثابة دفعة جديدة قوية للنزوع الديني للثورة البولونية ، وتعميق للعناق الحار بين الدين والثورة هناك !!

فها هنا .. في قلب المجتمعات ذات العلاقات المادية الصرفة ، والتربية والتثقيف المبرمجين على أساس رؤية إلحادية بحتة .. ينتفض نداء الإيمان .. ويتحرك الوزع الديني من تحت ركام عشرات السنين المترعة بعمليات القتل والتدمير والاستئصال ..

هنا نجد كيف تعمل حتميات التاريخ عملها .. فليس الصراع الطبقي هو الحتمية الوحيدة فهناك حتميات أخرى تكاد تطوي في جناحها هذا الصراع وتشق له مجرى آخر مغاير تماما !!

وفي روسيا (الأم) نفسها لعبت (الحتمية) الدينية دورها في إرغام القيادة الفكرية على الاعتراف ، بشكل أو بآخر ، وبدرجة أو أخرى .. بهذا الكائن الحي الرابض في الأعماق ، المتشاك مع الخلايا ، المتوحد في صميم التجربة .. فتراجعت بعض الشيء إن على مستوى المجتمعات النصرانية في الاتحاد السوفيتي أو على مستوى المجتمعات الإسلامية هناك ، وأقر دستورها ما لم يكن يحظر على بال (ماركس) أو (لينين) .. ولا نقول (ستالين) لأن هذا وجد نفسه مضطرا هو الآخر لدى هبوب عاصفة الهجمة النازية ، لكي ينحني أمام المقولة الدينية ويطلقها من الأسر لكي تمنح الناس القدرة على المقاومة والصمود بعد إذ عجزت عنها مقولات التبدل في وسائل الإنتاج !!

وفي الصين الشيوعية يحدث ، ولأول مرة ، وبعد مرور ما يقرب من نصف القرن على قيام تجربتها الماركسية ، أن تمنح المجتمعات الدينية حريتها المهضومة ، وأن يتحرك ملايين المسلمين صبيحة عيد الفطر المبارك لكي يؤديوا صلواتهم كما كان يؤديها . يوما . الآباء والأجداد ..

ترى .. أين ذهبت جهود نصف قرن في صياغة أجيال جديدة استلت من كينونتها كل النزعات الدينية وشحنت شحنا بتيارات الكفر والإلحاد ؟
هذه لمحات مما حدث . هناك . في نسيج المجتمعات الشيوعية المادية .. فكيف بغيرها من المجتمعات؟

مرة أخرى .. إن معطيات التاريخ وأطروحاته لا تقول بغير ثقل الحقيقة الدينية وأصالتها وديمومتها وقدرتها على الفعل والتحقق والانتشار .. يقينا ..

(5)

إن فطرة الأفراد ، أو تكوينهم الذاتي ، وتركيب المجتمعات ، أو طبيعة العلاقات الاجتماعية ، ومناهج البحث العلمي ، تؤكد اليوم ، وسيزداد تأكيدها ، أطروحات الدين كضرورة نفسية ، واجتماعية ، وحضارية ..

اليوم ندرك أكثر فأكثر إحدى مقولات القرآن الكريم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾⁽¹⁾ .

(1) الأعراف 172-173 .

إنها الشهادة المركوزة في الأعماق على ربوبية الله : عهدا ومسؤولية والتزاما وإنه نسيج للفترة قد تتشابك النزوع الديني في لحمته وسداه..

إن فطرة الإنسان (متدينة) ابتداء .. ولكن فقدانها التوازن لهذا السبب أو ذاك ، وكننتيجة لهذه السلسلة من الضغوط أو القسر أو تلك ، هو الذي يجنح بها باتجاه الإلحاد .. والجنوح حالة مرضية .. حالة استثنائية .. ولن يؤخذ به مقياسا على أي وجه من الوجوه .. إنما المقياس هو حالة التوازن ، وحالة التوازن تلك قد محضت بالدين!!

فمن خلال هزة نفسية عنيفة ، أو خطر جاثم مخيف ، أو نازلة مفاجئة ، أو خسارة مبهظة .. ومن خلال إحساس مرير بالفراغ .. أو التمزق .. أو التشتت .. أو الملل .. أو التخمّة .. أو اليأس .. أو الاكتئاب .. أو الضيق .. أو الاختناق .. يجد الإنسان نفسه وهو يهرع لطرق الأبواب التي أقفلت على وجدانه الديني ، وهز النوافذ التي سدت على إحساسه الإيماني ، وتمزيق الستائر التي أسدلت على نزوعه الغيبي .. حتى إذا ما فتحت الأبواب والنوافذ الموصدة ، وأزيجت الستائر المسدلة ، وجد الإنسان نفسه يعود ثانية إلى فطرته التي فطر الله الناس عليها ، ويتحقق بالتوازن المفقود..

وثمة حشود لا يحصيها عد لشهادات أناس عانوا من تجربة الجنوح المبهظة ثم عادوا بعد فترات تطول أو تقصر إلى مرافئ الإيمان في نفوسهم ، فانقلب العالم في أعينهم ، بعد أن اضطرب وتفكك وتأرجح طويلا : إلى سلام وود ومحبة وثقة وسكينة واطمئنان وفرح وتعاطف وتناغم وانسجام ..

إن العودة إلى الدين ليست عودة إلى النبع الصافي والجنور الموغلة في الأعماق فحسب، وليست لقاء بالفطرة النقية بعد ضياع وتخبط طويلين في دروب الضلال المترعة بالغباب فحسب .. ولكنها . فوق هذا وذلك . لقاء بالناموس الذي يسير السماوات والأرض والحياة والأشياء .. تتجانس معه ووافق وتناغم .. هنالك حيث يتوحد إيقاع الخليقة وهو تتحرك فاعلة معطاء ، متوجهة صوب المصدر الواحد متعبدة إياه ، مسبحة بحمده وجلاله ..

ومن خلال هذا الإيقاع المتجانس .. هذا التوافق في الحركة .. والتوجه المتوحد نحو المصدر والمصير ، يتحقق الكسب الكبير الواعد الذي يمنحه الله سبحانه لعباده الأوابين إلى فطرتهم .. على مستويين ، مستوى الإحساس الذاتي بالانسجام والفرح والوافق .. وهو إحساس حلو المذاق يصعب وصفه .. ومستوى القدرة على الحركة والفاعلية والعطاء..

فإن إنسانا يلتقي بالناموس في حركته المتوحدة ، غير ذلك الذي يرتطم به ويتعارض معه .. هاهنا تجميع للطاقة ، واستجاشة لها ، واستمداد من ارتباطاتها الكونية التي ما لها من حدود .. وهناك تفتيت لها ، وتجميد لفاعليتها ، وقطيعة مريرة بينها وبين الكون على مداه..

إن المنبت لن يستطيع أن يفعل شيئاً .. إنه مقطوع من شجرة الخليقة الكبرى .. متيبس حتى النخاع .. أينما توجهه لا يأتي بخير..

وما لم يرجع الإنسان إلى فطرته ، فلن يفضل - بحال - ورقة مهشمة صفراء لفظتها الشجرة الكبيرة التي لا تمنح نسغها إلا لمن تحس أنه منها .. وإليها!!

(6)

فماذا عن البعد الديني في المجتمع؟! ماذا عن النزوع الإيماني في شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة الشاملة؟!

لقد جربنا وجرب الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، حياة وعلاقات اجتماعية أريد للدين أن ينفذ يديه منها ، طلب منه حيناً وأرغم أحياناً ، على عدم التدخل في هذه المسألة أو تلك ، وفي هذه المعضلة أو تلك ، وبمرور الوقت ازداد الطلب واتسع نطاق الإرغام ، حتى جاء اليوم الذي ضيق فيه الخناق على (الحل الديني) للمشاكل الاجتماعية ، و (الموقف الديني) من المعضلات العامة ، ووجد الدين نفسه مضطراً للانزواء في المساجد والجوامع والتكايا.. أو في الأديرة والكنائس والصوامع.. فإذا ما أتيح له أن يغادرها إلى الحياة العامة لم يسمح له بأكثر من الإدلاء برأيه في مسائل الأحوال الشخصية .. يقفل بعدها عائداً إلى زاويته لكي يأوي إليها..

ماذا كانت النتيجة؟

الفوضى .. والفساد.. ومن ورائهما حشود من الأخطاء والشرور والمآسي والمتاعب والمنغصات والآلام ..

ابتداء بعلاقة الزوج بزوجه والأب بأبنائه والرجل بالمرأة وانتهاء بالعلاقة بين المجتمعات البشرية على مدى العالم كله ، مروراً بشبكة واسعة معقدة من العلاقات الاجتماعية بين عدد لا يحصيه عد من الأطراف التي تعمل في المجتمع الواحد..

وكل النظم الوضعية المادية أو العلمانية التي سعت لتنظيم العلاقات الاجتماعية من خلال منظورها المذهبي أو التشريعي .. ما لبثت بعد فترة قد تطول وقد تقصر ، إن وجدت تنظيمها يتعرض للاهتزاز والتفكك وتفتح فيه ثغرات تتسع يوماً بعد يوم لكي تدخل المزيد من الهواء الفاسد الذي يسم الحياة الاجتماعية ويملؤها بالأكدار .. وعبثاً حاولت سد تلك الثغرات وترصين السداد الاجتماعية كيلا يكتسحها الفيضان .. ولكنه قدر الله .. فإن من اختار أن يتجاوز هندسته المعجزة للعلاقات الاجتماعية واستبدالها بهندسة بشرية تتسم بالنسبية والعجز والقصور والخضوع لمقولات الزمن والمكان المحدودين .. لابد وأن يتلقى جراء فعلته تلك : اهتزازاً في النظام يفتح على من فيه ثغرات يتسلل منها الماء الذي يكسر كل الموانع والحواجز لكي ما يلبث أن يغمر التجربة كلها بالفوضى والفساد.. ولقد حذر الرسول ﷺ من هذا المصير المفجع

عندما شبه التجربة الاجتماعية بمجموعة من الناس تبحر في سفينة إلى هدفها المنشود ، ويبيح بعض ركابها لأنفسهم أن يعيثوا فيها حيث يجلسون ، فإن لم يأخذ الآخرون على أيديهم هلكوا جميعا وإن أوقفوهم في اللحظة المناسبة نجوا جميعا ..

ولكن أحدا لم يسع إلى وقف أولئك الذين يعيثون في سفن حياتنا المعاصرة .. أولئك الذين منعوا الدين من أن يقوم بدوره كاملا في مجابهة تحديات الحياة ، وأحلوا بدلا منه أهواءهم ومصالحهم وظنونهم .. فكانت الكسور .. وكان تسلل الماء والغرق الوشيك!!

ونقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الحاسمة «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»⁽¹⁾ ، فنضع أيدينا على المفتاح .. وندرك السر الذي يكمن وراء كل المتاعب والآلام التي تغطي حياتنا الاجتماعية .. وراء هذا البحر الطامي من الفوضى والفساد .. إن أحدا لم يتحرك لوقف الفتنة .. والذين تحركوا لم يسمع لندائهم .. وكان ما كان .. ونقرأ «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»⁽²⁾ .

وإنه لتحد هذا الفساد الذي يأخذ اليوم بخناق العالم ، وإن بوادر الاستجابة الناجحة له قد لاحت في الأفق لحسن الحظ .. إنها الرجوع إلى الدين .. وذلك هو المؤشر الذي يسم الكثير من المواقف والدعوات والحركات في العقود الأخيرة من القرن الفائت . ومعنى هذا أن التنظيم الديني للحياة الاجتماعية يمثل (حتمية) لا بد من الاعتراف بها والإذعان لمقولاتها .. وإلا اكتسحنا الفساد .. ليس ثمة اختيار .. إما هذا أو ذاك .. إما (النظام) وإما (الفساد) ..

فما شرعه الله للمجتمعات البشرية هو غير ما يشرعه العبيد .. ليس ثمة وجه للقياس والمقارنة على الإطلاق .

شريعة الله سبحانه تنبثق عن العلم الكامل المحيط والرؤية الشاملة والنفوذ إلى أعماق الأشياء والظواهر .. إنها تضع النظم والضوابط والقيم والمعايير لجماعة هي من خلق الله وصنعه «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»⁽³⁾ .

إن شريعة الله هي الصياغة المثلى لحياة اجتماعية يسودها التوازن والعتاء .. وما دونها من الشرائع الوضعية لا تعدو أن تكون محاولات يحكمها الهوى ، والظن ، والتخمين ، وتسودها تجارب الخطأ والصواب ، فتفقد بمرور الوقت توازنها وقدرتها على الإبداع ..

(1) الأنفال 25 .

(2) الروم 41 .

(3) الملك 14 .

وشتان بين تصميم الله سبحانه للعلاقات الاجتماعية وبين تصميم هذا الفرد أو ذلك من عباده ذوي القدرات المحدودة والرؤى النسبية والأحكام التي تطيش معها الموازين.. شتان بين تصميم يمتلك ضمانات الحماية والرقابة والتنفيذ الأمين بسبب من انبثاقها من الداخل .. من الضمير المؤمن الذي يستشعر رقابة خالقه في كل ممارسة مهما كان حجمها صغيرا أم كبيرا.. وبين تصميم لا يملك سوى ضمانات الرقابة الخارجية والحماية المادية والتنفيذ المنظور .. وهي كلها لا تمنع (التجربة) من أن تتحرف عن مسارها الصحيح وتتجاوز الخط المرسوم..

وكلنا يعرف - على سبيل المثال - ما حدث بالنسبة لواحدة من العلاقات الاجتماعية، بل بالنسبة لجانب صغير منها ، تلك هي مسألة إباحة الطلاق وفق شروطها المعروفة ، فإن النظم الوضعية وكهنتها أدانوا هذه الإباحة ، وملاّت إيدانهم آلاف الصفحات في بطون الكتب والدوريات ، وعلت أصواتهم في قاعات الدرس والمحاضرات .. وما حدث بعد هذا معروف.. عاد الكثير من هذه النظم ، بعد عشرات من تجارب الخطأ والصواب ، وبعد مسيرة طويلة مترعة بالتخبط ، لكي تبيح الطلاق .. وما قصة التصويت على الإباحة في البرلمان الإيطالي ، على بعد خطوات من (الفاتيكان) معقل الكاثوليكية ، عنا ببعيدة : صوّت أكثرية الأعضاء على الإباحة بعد سنوات من النقاش والجدل.. واعتبر تحقيق الإباحة مكسبا شعبيا ووصفته الصحف اليسارية بأنه خطوة تقدمية !!

هذا مثل واحد من مئات .. ولن يتسع المجال للمزيد .. وثمة ما نقوله على وجه الجزم والحسم : إنه حينما كانت هناك قضية أو معضلة اجتماعية ، حيثما كان حلها الأوحده هو ذلك القادم من عند الله ، وطاش ما عداها من محاولات ، فأصحابها ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾⁽¹⁾ والهدى واحد لا يتعدد .. وما عداه فهو الضلال..

(7)

وماذا عن الدين - أخيرا - كضرورة حضارية؟

لن يتسع المجال هنا للحديث عن هذا الجانب .. فقد سبق وأن أفضت القول فيه في ثلاث من الكتب⁽²⁾ .. وليس ثمة ضرورة لتكرار ما قلته هناك ، إذ يمكن الرجوع إليه في مظانه⁽³⁾ ..

(1) النجم 23 .

(2) تهافت العلمانية ، التفسير الإسلامي للتاريخ ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم .

(3) أنظر على وجه الخصوص : التفسير الإسلامي للتاريخ ، الفصل الثالث ، الصفحات 192-198 ،

213-230 ، 261-262 ، 285-293 ، 295-304 (دار العلم للملايين ، بيروت - 1974) .

ويبقى (الدين) ، قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، الحتمية الوحيدة في مسيرة الإنسان فردا
وجماعة ، وهو يصنع وجوده ويتحرك صوب مصيره..

علم
الهوى وعلم النبوة

(1)

يرتبط العلم الذي يشرع للناس مناهج حياتهم في مستوياتها وخلايها كافة ، بأخلاقية صاحبه وطبيعة رؤيته للظواهر والأشياء ارتباطا وثيقا . فالمفكر الوضعي - إلا في حالات نادرة جدا تكاد تكون معدومة - لا يستطيع تجاوز الادعاء والغرور والانتفاخ ومط الحقائق الجزئية ، واعتبار فلسفته أو عقيدته أو منهجه المفتاح الوحيد للكون والعالم والحياة ، من أجل أن يسوق وراءه عددا أكبر من العبيد والمستنلين . وهو من أجل ذلك مستعد أن يغير مواقفه بين الحين والحين ، وأن ينقلب على قناعاته لحظة بعد أخرى ، من أجل ضمان مصلحته التي قد تقتضي تقلبا كهذا ، وحماية موقعه الفوقي الذي يمنحه القدرة على استعباد الأذلاء والمعجبين والأتباع .

لكن النبي ، أي نبي ، لم يكن بمقدوره أن ينحرف قيد أنملة عن التعاليم الربانية الآتية من السماء ، والتي تمثل الحق المطلق الذي لا يخضع للمصالح والأهواء والمتغيرات والنسبيات والظنون ، لأنها صادرة عن الله سبحانه .

والقرآن الكريم حين يحدثنا عن خطاب الله جل وعلا لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام بآيات كهذه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾⁽¹⁾ ، ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرْيَدَ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعُ مَنْ أَعْقَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ نِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾⁽²⁾ ، ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾ ، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكَى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزْكَى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾⁽⁴⁾ ، ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأُدْفَعْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾⁽⁵⁾ ، ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁶⁾ ، ﴿لَيْسَ لَكَ

(1) الحاقة 44-47 .

(2) الكهف 28 .

(3) الأنعام 52 .

(4) عبس 1-10 .

(5) الإسراء 73-75 .

(6) القصص 86-87 .

مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ»⁽¹⁾ ، «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ»⁽²⁾ ، «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ»⁽³⁾ ، «وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ»⁽⁴⁾ ، «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ»⁽⁵⁾ .

بل أننا لنجد أنفسنا قبالة مفردة متألقة أخرى بين حشود من المفردات لا يتسع المجال لإيرادها .. إن القرآن الكريم يمضي إلى زوجات الرسول ﷺ والمحيطين به ، وبدلاً من أن يمنحهم المزيد من المكاسب والميزات ، كما يحدث في دوائر الزعامات الوضعية ، نجده يتهدد ويتوعد ويعطن عن مضاعفة العذاب لأي من زوجاته (رضي الله عنهن) قد تمارس خطأ أو فاحشة وحاشاهن جميعاً : «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَاْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا»⁽⁶⁾ ، وبالمقابل فإن من تطع منهن توتى أجرها مرتين ، ليس في الدنيا ، وعلى حساب أموال جماهير الناس وحقوقهم ، كما يحدث في دوائر الزعامات الوضعية ، وإنما في الآخرة عند الله سبحانه : «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنْقُصْ اللَّهُ مِنْهُ لِقَاءَ رِزْقِهِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا»⁽⁷⁾ ، على العكس ، فإنهن في الدنيا يتلقين المزيد من التضييق والحصار المعاشي ، ويتعمد الرسول ﷺ أن يحيا معهن على الكفاف المر القاسي ، حتى إذا وجد منهن بوادر الاعتراض ، أمره القرآن أن يخيرهن بين الطلاق وبين البقاء مع الحياة الخشنة الصعبة التي يعرفها الجميع ، فيختزن الثانية لأن فيها رسول الله ﷺ : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرِحَنَّ سَرَاخًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا»⁽⁸⁾ .

(1) آل عمران 128 .

(2) الزمر 65-66 .

(3) يونس 94-95 .

(4) الأنعام 35 .

(5) الأنعام 50 .

(6) الأحزاب 30 .

(7) الأحزاب 31 .

(8) الأحزاب 28-29 .

القرآن الكريم عندما يحدثنا عن هذا الخطاب الحاسم ، الصارم ، المستقيم كالصراط.. هذا الخطاب الذي يحمل أمر الله سبحانه ، إلى رسوله وعبده الكريم ، بكل ما يحمله من جدية، ومسؤولية ، وتهديد ووعيد .. فإنما يمس - فيما يمس - هذه المسألة الجوهرية في حياة الأمم، وبصيغة إنذار من الدرجة القصوى ، تحمل مفرداته ، ونبرته ، ومناخه التعبيري ، أقصى درجات التحذير من أي انحراف ، أو تجاوز ، أو ميل ، مهما دق أو خفي ، عن التعاليم الصارمة القادمة من فوق!

هذا هو أحد الفروق الحاسمة بين ما يقوله ويفعله الوضعيون ، أرباب المصالح والأهواء والظنون ، وما يتلقاه ويقوله ويفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. وهو فارق يكفي وحده لكي نعرف الخسارة الكبرى لقطعان الضالين الأذلاء ، المستلبين ، السائرين وراء الأرباب المزيفين ، والمتألهين في الأرض . ولكي نعرف - في المقابل - الكسب العظيم المشرف لكل المنتمين لشريعة الله ، الملتزمين تعاليم أنبيائه الصديقين عليهم الصلاة والسلام.

هناك الكذب والانحراف والتخبط والتضارب والالتواء والضلال والخسران المبين ، وهنا الصدق والاستقامة والوضوح والانسجام والهدى والكرامة والصراط الذي يقود إلى الهدف عبر أقصر المسافات وأكثرها وضوحا واعتدالا واستواء ..

ونعرف عند ذلك ما الذي تريد أن تقوله كلمات الله وهي تتحدث عن هؤلاء الأرباب المتقلبين من الوضعيين ، وتحذر من الانزلاق إلى مصائدهم في الوقت نفسه فهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾⁽¹⁾ ، بينما يتبع المؤمنون الهدى الآتي من عند الله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾⁽²⁾ . وهم - أي الأرباب - يقيمون مناهجهم على الأسماء والقيم والرموز الموهومة المجردة عن الفاعلية والتي لا تملك قدرة أو سلطانا : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾⁽³⁾ ، بينما يقيم الأنبياء عليهم السلام مناهجهم على القيم والضوابط والمعايير والتعاليم القادمة من عند الله الواحد ، المسيطر ، المرید ، العالم ، الخبير ، القوي ، القادر على الفعل والخلق بقوة الكلمة ..

إن المفكر الوضعي يتمحض لنفسه ، لمصلحته ، لأهوائه وظنونه ، بينما يتمحض النبي لله وحده ، فلا يكون له من الأمر شيء ، إنما هو البلاغ المبين وحده .. الإنذار والبشارة.. الإيضاح والتفصيل.. وليس له بعد ذلك أيما شيء : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

(1) النجم 23 .

(2) النجم 23 .

(3) النجم 23 .

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ»⁽¹⁾ ، «وَأَنْ مَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ»⁽²⁾ ، «فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ»⁽³⁾ . إن الرسول هو المنفذ لكلمة الله في الأرض.. المبعوث بتعاليمه إلى العالم.. والوسيط الصادق الأمين بينه وبين الإنسان.

وإذا كان المفكر الوضعي ، بسبب من موقعه الفوقي ، وانخداع جماهير المغفلين بدعوته الكاذبة ، يغير هنا ويبدل هناك ، لتحقيق مصلحة أو إحكام قبضة ، أو ممالأة سلطان ، أو تجاوز هزيمة أو خسارة ، فإن النبي ليس له - وحاشاه - شيء من هذا كله ، وهو حتى عندما يجتهد الرأي - أحيانا - فإنه لا يجتهد لنفسه ، وإنما لله ، وللناس الذين حمل أمانة دعوتهم إلى الصراط .. إنه ينسلخ عن ذاته بالكلية ويتمحض للآخر ، مستعينا بهدي الله ، فإذا ما حدث وأن جاء اجتهاده هذا ، قبل أو انه ، أو ذهب إلى غير موقعه ، تنزلت كلمات الله في اللحظة المناسبة، بكل الحسم والصرامة اللتين وقفنا عند بعض نماذجهما ، لكي تقول للنبي : كلا! فإنه ليس لك من الأمر شيء!

إنه الفارق الكبير بين أخلاقية المتسلطين من قادة الفكر وأرباب المذاهب والفلسفات والدعوات الوضعية ، وبين أخلاقية الأنبياء .. رسل الله إلى البشرية ، عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ومرة أخرى ، وثالثة ، وعاشرة .. فإن هذا الفارق وحده يكفي للتحذير .. يكفي لكي يقول للناس : انتبهوا.. احذروا الخدعة.. يكفي لكي يرسم طريقتين كل منهما يمضي إلى هدف، أحدهما ينتهي عند الشيطان ، والآخر يؤول إلى الله سبحانه .

(2)

والشواهد كثيرة.. على التلاعب بالعقائد والأفكار إلى درجة التناقض والعبث بسبب الاندفاع مع الأهواء والظنون ، وملاحقة المصالح والضمانات والاعتبارات الجزئية الموقوتة ، واعتماد كل وسيلة للوصول إلى الأهداف..

كلنا يذكر الفيلسوف الألماني (الكبير!) هيغل ، صاحب التفسير المثالي للتاريخ ، والذي كان من أبرز دعاة العرقية الألمانية والتفوق الجرمانى.. فلما غزا نابليون بونابرت ألمانيا ، بعد أن اكتسح مساحات واسعة من أوروبا ، اعتبره هيغل المعبر عن العقل الكلي ، المهيمن على مقدرات الصيرورة التاريخية .. و(البطل) الذي جاء (على حصانه الأشهب) لكي يصنع التاريخ

(1) المائة 99 .

(2) الرعد 40 .

(3) النحل 35 .

.. رغم أن عسكرية نابليون ، وما ادعاه من التبشير بمبادئ الثورة الفرنسية في الوقت نفسه ، يتناقضان في الأساس مع نمو القومية الألمانية وفلسفتها وأهدافها!

وكلنا يذكر ما فعله فيلسوف الاجتماع (الكبير!) أوغست كومت عندما بعث رسالة بعنوان (رسالة فلسفية في التنكر الاجتماعي) إلى محبوبته (كلوتيلد دي فو) يغير رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييرا تاما . فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستوارت مل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير ، أما الآن فهو يرى المرأة عنصرا أساسيا في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه ! والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض هو أنه في الأولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه ولكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حينما من الدهر ، وفي الثانية أحب فتاة لم يتح له الزواج منها لكنها منحته نفسها وأحبته حبا صادقا⁽¹⁾ .. وهكذا أصبح الحكم على جنس المرأة مستمدا من خبرة الفيلسوف الشخصية ومطاراته ونزواته!

ويذكر بعض المتابعين - كذلك - تلك الطريفة التي جرت بين لينين قائد الحركة الشيوعية أيام صراعها ضد السلطة القيصرية ، وتابعه الأمين ستالين - وكلاهما ، كما هو معروف ، زعيمان اشتراكيان كبيران ! - ففي إحدى أعوام العمل السري في جورجيا ، اضطر ستالين الذي كان يتستر تحت اسم (كوبا) أن يلجأ متخفيا من مطاردة البوليس ، إلى كوخ ناء يمتلكه أحد أقارب زوجته ، وهناك اختار الزعيم الثوري زوجة صديقه القروي المسكين عشيقة له ، ولم يكتف بذلك بل اغتصب أخت القروي ولم تكن قد بلغت من العمر عامها الرابع عشر . ليس هذا فحسب بل انه ، وقد احتاج الحزب إلى المال ، استطاع عن طريق الرفيق لاجوس كوريسكو ، بائع المخدرات والأسلحة ، وعن طريق العاهرات ، أن يجمع الكثير من المال . ولما سمع لينين بذلك كتب إليه يعنفه ويلومه قائلا : إنني لا أوافقك على تلطيف سمعة الحزب وتلويث اسمه بالدعارة والفسق الذي أصبح تجارة رائجة ، وأن كنت لا أنكر أننا في أشد الحاجة إلى أموال لتغذية الخلايا الثورية .. وسيكون من المخجل للحزب إذا طالعنا صحيفة القيصر يوما بإعلان مكتوب بالخط الكبير : زعيم البلاشفة القوقازيين يعمل قوادا!

لكن لينين لم يشأ - هو الآخر - أن يتخلى عن هذا المورد الذي يخدم مالية الحزب فاقترح على ستالين أن يجعل نفسه بمنأى عن هذه الأماكن المكشوفة ، وأن يجمع المال عن طريق كوريسكو ، وبذلك يكون بمنجاة من شبهة الاتصال بالفاجرات . أليس لينين هو نفسه صاحب مبدأ : (أكذب وأكذب حتى يصدقك الناس)؟ فماذا كان جواب ستالين؟ إنه لا يرى أي خطأ في استغلال محترفات البغاء ، وأنه يساعد هاتيك الفتيات على التمتع بالحياة تحت

(1) طه حسين : ألوان ، ص154 (دار المعارف ، القاهرة - 1958) .

ظروف أفضل بكثير من الظروف التي كن يعيشن تحتها من قبل ، لأنهن يشفقن من عرض أجسادهن في الشوارع خوفا من البوليس . أما اليوم فإنهن يتمتعن بالحياة الهادئة في منزل اكتملت فيه أسباب الراحة والسعادة . ومع ذلك فإن ستالين لم يختلف مع لينين في أن اقتضاح هذه الحيلة سوف يلحق بالحزب ضررا كبيرا ، ولذلك وعد بتنظيم الأمور⁽¹⁾، وأغلب الظن أن لينين اقتنع أخيرا بمنطق تلميذه البار ما دام أن كل الطرق تؤدي إلى .. المال..!

كما أن المتابعين يذكرون ما لحظته المدرسة الفرنسية الخاصة التي استقدمها ستالين ، أيام زعامته للاتحاد السوفيتي ، لتعليم أبنائه . فلقد اكتشفت نسخة من رواية (الحرب والسلام) لتولستوي وعلى هوامشها ملاحظات بخط ستالين تحمل معنى التحامل على تمجيد الأبطال ، وتكرار جملة (خطأ اشتراكيا)!⁽²⁾ .

فهل ثمة في التاريخ المعاصر ، بل ربما في مساحات واسعة من التاريخ البشري ، غير هتزر وموسوليني ، من مارس في سلوكه وسياساته مفهوم البطولة الطاغية وشرب كأسها حتى الثمالة مثل ستالين؟ والمجازر الجماعية التي نفذها؟ وحصاد الملايين من أبناء أمته ، ما كانت في جانب من جوانبها سوى تعبير عن هذا التفرد الطاغوي الذي يصل على يدي ستالين حد التآله وليس مجرد البطولة . ولم تكن التصفيات الرهيبة التي كانت تأتي على شكل موجات اثر موجات ، مجرد حماية للثورة ومبادئها من الأخطار والتحديات ، لأن كثير من الذين ذبحوا كانوا - باعتراف القيادات الحزبية والسياسية الروسية - من خيرة أبناء الحركة الشيوعية وزهرة روادها وصانعيها ، وكان بعضهم الآخر من أخلص أصدقائه وأقرب المقربين إليه ، بل أن إحدى الضحايا كانت زوجته الثانية نفسها!

ومع ذلك كله فإن ستالين وهو يجلس إلى مكتبته الخاصة يطالع في رواية (الحرب والسلام) ينسى هذا كله ، ويعلق بين صفحة وأخرى على أحداث الرواية متحاملا على تمجيد الأبطال معتبرا إياه خطأ اشتراكيا . هل من تناقض بين الفكر والممارسة ، أو السلوك ، يمتد من الطول إلى الطول ، كهذا التناقض؟

الشواهد كثيرة⁽³⁾ ، وبعضها يتجاوز بالمرء حافة الرفض والإنكار إلى حالة القرف والاشمئزاز بسبب هذا التلاعب في مفردات الفكر والسلوك.. هذه الثنائية بين القول والفعل.. هذا الازدواج بين الفكرة والواقع والذي مارسه كثير من الوضعيين..

(1) برنارد هاتون : الحياة الخاصة لجوزيف ستالين ، ص17 ، 27-28.

(2) أنظر بالتفصيل: احمد بهاء الدين: أفكار معاصرة ، ص286-299 (كتاب الهلال، القاهرة - 1970).

(3) للمزيد أنظر : المؤلف : حوار في المعمار الكوني (دار الثقافة ، الدوحة - 1987م) .

(3)

وما لنا ألا نرجع - كرة أخرى - إلى عالم النبوة الوضيء ، المتوحد ، التنظيف حيث يصير القول والفعل شيئاً واحداً ، وحيث تلتحم الفكرة والواقع في كل معماري متناسق باهر ، وحيث يغدو السلوك انعكاساً أميناً صادقاً للمبادئ والأفكار ، وحيث يجئ التحذير الإلهي في اللحظة المناسبة تماماً لأيما محاولة قد تحدث ثغرة ما ، مهما دقت وخفيت ، ومهما كانت النيات المخلصة التي تكمن وراءها ، في النسيج الطاهر المتوحد لمعطيات الرسل والرسالات.

هنا حيث لا تغيير مطلقاً في المبادئ ، حتى ولو ارتطمت بعنف ، ليس بمصلحة أو رغبات النبي ، فهذا أمر مفروغ منه ، وهو لم يخطر على بال أحد من أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وإنما بمطالب الرسالة نفسها في مرحلة ما ، ومن أجل المصلحة العامة للأمة أو الجماعة التي تنتمي إليها .

لا تغيير ولا تبديل .. إنما هو الحق الواحد ، والمقياس الواحد ، والعدل الواحد الذي كتب على الرسل أن ينوعوا بحمله الصعب وأن يحملوا أمانته الباهظة ، وأن يمضوا به إلى آخر لحظة من حياتهم على الصراط .

ولنقرأ معاً هذا الخطاب القرآني لرسول الله ﷺ ثم لنتأمل (المغزى) الذي يتشكل في كل حرف أو كلمة فيه مما يبدو - بحق - قمة تتضاءل دونها سائر القمم الأخرى في مجال التعامل العادل كالصراط مع الإنسان أياً كان موقعه في الزمن أو المكان أو الطبقة أو العرق أو المكانة أو - حتى - الدين ! ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾⁽¹⁾ .

هذه الآيات ، يقول الشهيد سيد قطب : (تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً ولا تعرف لها البشرية شبيهاً). وتشهد - وحدها - بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون

(1) النساء 105-113 .

من عند الله ، لأن البشر - مهما ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم - لا يمكن أن يرتقوا - بأنفسهم - إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات ، إلا بوحى من الله .. إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللثيمة ، على الإسلام والمسلمين .. في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ، ويؤلبون المشركين ، ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ، ويطلقون الإشاعات ، ويضللون العقول ، ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة ، ويحاولون تفسير المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج. والإسلام ناشئ في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس ، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطرا حقيقيا على تماسك الصف المسلم وتتأسفه . في هذا الوقت الحرج ، الخطر.. كانت هذه الآيات كلها تنزل على رسول الله ﷺ وعلى الجماعة المسلمة لتتصف رجلا يهوديا اتهم ظلما بسرقة ، ولتدين الذين تأمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار في المدينة ، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ﷺ وجنده ، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة !

(.. إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة برئ ، تأمرت عليه عصبية لتوقعه في الاتهام - وإن كانت تبرئته برئ أمرا هائلا ثقيل الوزن في ميزان الله - إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشأن أيا كانت الملابس والأحوال . وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها حتى في صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس ، وإقامة هذا المجتمع الجديد ، الفريد في تاريخ البشرية ، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية ، والتي لا تتدحرج مع الأهواء والميول والشهوات) .

(ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث ، أو عدم التشديد فيه والتتديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار . بل فضحه بين الناس ، على هذا النحو العنيف المكشوف . كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم ، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سبب واضح عريض . إن هذا المتهم (يهودي) من (يهود) ، يهود التي لا تدع سهما مسموما تملكه إلا أطلقتها في حرب الإسلام وأهله ، والتي يذوق منها المسلمون الأمرين .. والتي لا تعرف حقا ولا عدلا ولا نصفة ، ولا تقيم اعتبارا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق!

(وكان هنالك سبب آخر ، وهو أن الأمر في الأنصار الذين آووا ونصروا والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن . بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق ! وكان هنالك سبب ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهما جديدا يوجهونه إلى الأنصار ، وهو أن بعضهم يسرق بعضا ثم يتهمون اليهود ! ولا يدعون هذه الفرصة تقلت للتشديد بها) .

(ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله .. أن يقام ميزان العدل في الجماعة المسلمة لتحكم بين الناس مجردا من جميع الاعتبارات الأرضية ، والمصالح القريبة الظاهرة ، والملابسات التي يراها الناس شيئا كبيرا لا يقدر على تجاهله !)

(.. ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة! ولا للكياسة! ولا للسياسة ! ولا للمهارة في إخفاء ما يجرح ، وتغطية ما يسوء . ولم يكن هناك لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها ! هنا كان الأمر جدا خالصا ، لا يتحمل الدهان ولا التمويه ! وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله ، وأمر هذه الأمة التي تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره . وأمر العدل بين الناس في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس إلا بوحى من الله) .

(وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة ، في جميع الأمم على مدار الزمان ، فيراها هنالك في السفوح ، ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخورا متريدة ، هنا وهناك ، من الدهاء والمرء والسياسة والكياسة والبراعة والمهارة ومصصلحة الدولة ومصصلحة الوطن ومصصلحة الجماعة ، إلى آخر الأسماء والعنوانات ، فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود!..)(1) .

(4)

إنها عقيدة الحق والعدل التي لا تميل ولا تجور مهما تغيرت أبعاد ونسب العلاقات التاريخية، أو العقدية ، بين الأطراف كافة .

(1) في ظلال القرآن ، الجزء الخامس ، الصفحات 214-219 (باختصار عن الطبعة الثالثة) .

فماذا تساوي ، إزاء هذه القمة المتعالية ، كل دعاوى الفلاسفة والقادة والمفكرين
الوضعيين ؟ ماذا تساوي مثالية هيغل ووضعية كومت ونضال لينين وستالين ، سوى أنها
محاولات للتحرك عند السفوح الهابطة التي تستسيغ التبديل والتغيير ، والالتفاف على الحقائق، أو
قلبها إذا اقتضى الأمر ، والتي تنسج أفكارها في ضوء المصالح والأهواء والظنون ، والتي لا
ترى مثلبة أو عيبا وهي تناضل القياصرة والظالمين بأموال البغايا وأرصدة القوادين!!

ما يريد
هذا الدين

(1)

عندما يتابع أحدنا في سورة النساء الآيات 27-31 ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ .

عندما يتابع هذا المقطع من سورة النساء يبرز قبالتها المجتمع الذي يريده الله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) : أقصى درجات النظافة ، والاعتدال ، والتوازن ، والمرونة ، والرحمة ، والاحتشام ، والتزام الصراط في كافة الفاعليات والممارسات .
إن كتاب الله ، بآيات فحسب ، يضع معالم واضحة ، ثابتة ، محددة ، وهي في الوقت ذاته شاملة ، ممتدة ، تملك القدرة ، في أية لحظة تاريخية ، على أن تصنع مجتمعا متوازنا سعيدا .

إن المسألة ليست في مجلدات من التفاصيل القانونية والتشريعية ، ولكنها في القواعد والأصول الكبيرة الثابتة التي تصبغ المجتمع كله .. تضع بصماتها عليه ، وتميزه عن سائر المجتمعات . إنها - قبل هذا - أوامر الله سبحانه ، وأحكامه ، وتعاليمه التي تغلو على الظنون والنسبيات والأهواء ، وتصدر عن العليم الحكيم الخبير الذي يعلم من خلق فيقرر له ما يصلح وينهاه عما لا يصلح ، ويضعه بالتالي على الصراط الذي يجتاز به رحلة الحياة الدنيا متوازنا ، معتدلا ، آمنا وسعيدا ، بينما ﴿يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ .. كل المشرعين الذين يحكمون بالأهواء والظنون .. كل أصحاب المصالح والشهوات والأهوائيات الفردية والطبقية والحزبية والطائفية والعرقية .. كل المتسلطين على مقدرات الإنسان في العالم لتحقيق منفعة خاصة أو كسب عاجل .. كل الآلهة والأرباب والطواغيت والأصنام التي استعبدت الناس لأنفسها من دون الله .. كل الذين لا يهتمهم الإنسان من حيث هو إنسان ، وإنما تهمهم مواقعهم الفوقية المتسلطة على رقاب العباد والتي يحققون من خلالها ما تمليه عليهم المصالح والمنافع والأهواء والظنون والشهوات .. كل هؤلاء الذين غطوا مساحة واسعة ممتدة من تاريخ البشرية ، وحكموا بالظلم والانحراف والحرمان والآلام والمتاعب والأحزان على حشود هائلة من بني آدم .. يريدون لهذا كله أن تميلوا الميل العظيم الذي حذرت منه الأديان ، والذي جاءت - ابتداء - لكي تكسر حلقة المفرغة وتفتح الطريق العدل ككرة أخرى أمام الإنسان من أجل أن ينطلق على الصراط لمعانقة أهدافه والتحقق بها.

ليس هذا فحسب ، بل أن الآيات الكريمة ترسم تقابلات أخرى بين ما يريد الله سبحانه وما يريد الطواغيت والأرباب . إن الله الذي هو أعلم بمن خلق يعرف ضعف الإنسان فيمنحه التشريع والتعاليم التي تتناسب وتكوينه هذا ، بينما يمضي الطواغيت لكي يستغلوا هذا الضعف ، وبدلاً من أن يرعوا حقه بالمزيد من المرونة والتكيف والسماحة ، إذا بهم يدوسون أكثر على رقاب الناس ، يحملونهم بأكثر مما تطيقه قدراتهم.. يحيلون حياتهم إلى كدح موصول وسعي لاهث لا يقطفون شيئاً من ثماره لأن هذه قد رصدت ابتداءً لكي تكون من نصيب السادة المتسلطين .

إن جوهر العدل بمعناه العام وبخصوصياته الاجتماعية ، يتشكل هاهنا ، فحيثما شرع الله سبحانه للإنسان منحه العدل ، وحيثما شرع له الكهنة والسدنة والطواغيت من المفتتتين على حق الله وحده ، انتفى العدل مهما غطيت المحاولة وزينت بالدعاوى والأيديولوجيات .

إن رحمة الله المتمثلة بتشريعه العادل تقف قبالة الباطل وتستجيش في المؤمنين روح التواد والتكافل من أجل ألا تؤكل أموالهم بالباطل.. بل تمضي إلى اعتبار تجاوز مطالب العدل قتلاً للنفس وانتحاراً جماعياً.. ثم هي مع استجاشة أقصى درجات الدفع والرضى والتكافل والتصعيد ، تحذر كل الذين يمارسون ظلماً أو عدواناً على هذا الحق العام أو القاعدة العريضة، بأنهم سوف يصلون نارا ، وما أيسر ذلك على الله جل في علاه.. ومرة أخرى ﴿إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا﴾ !

أي حرص هذا على أن تكون حياة الجماعة المؤمنة في العالم نظيفة عادلة سمحة مستقيمة.. حيث ينتفي الظلم والعدوان ، ويسود العدل والتكافل والسماحة والاستقامة .. إنها رحمة الله وحده بهذا الكائن الذي طالما تجاوز فرصته الإلهية هذه ، فوقع في براثن شياطين الأنس الذين يستهوونه بألف مكر ومكر .

إنه إذن الفارق الحاسم بين الصراط المستقيم ، المرسوم بعلم الله المطلق ، ورحمته التي لا حدود لها ، وبين الخطوط الملتوية ، المتعرجة ، المنحرفة التي يرسمها أصحاب المصالح والشهوات والعلم النسبي القاصر ، المحدود .. وإنه لفارق كبير.. كبير .

(2)

والذي يقرأ الآيات المذكورة من سورة النساء يجد فيها مفردات مترعة عطفًا ونداوة ورحمة، تتضفر جميعاً في نداء إلهي بر رحيم بهذا المخلوق الضعيف العاجز الذي يتخبط في الطريق ولا يكاد يتبين مصلحته وسعادته .. هذا الكائن الذي يأكل أمواله بالباطل ، والذي يقتل نفسه ، والذي تستعبده الظنون والرغبات الخاطئة والأوهام .. ثم ما يلبث الذين يتبعون الشهوات من

السدنة والطواغيت والأرباب أن يجرونه بعيدا في دوامة الانحراف والضلال وأن يميلوا به الميل العظيم الذي حذرت منه النبوات والأديان والذي أشارت إليه كلمات الله .

فها نحن إزاء مفردات (التوبة) و (التخفيف) و (الرضى) و (الرحمة) و (التكفير) و (الكرم) ، تصدر عن الله سبحانه نداء ووعدا ، وتيسيرا لرحلة الحياة الدنيا ، وضمانا للفوز والنجاة في الحياة الأخرى ، يقابلها في الطرف الآخر : (الشهوة) و (الميل) و (الباطل) و (القتل) و (العدوان) و (الظلم) و (النار) و (الكبائر) و (السيئات) .

والإنسان بسبب مما أراده له الله سبحانه من كرامة وسيادة على العالمين حر في اختياره هذا الطريق أو ذلك.. ومسؤوليته الأخلاقية ترتب مصيره . بإرادة الله وحده . على اختياره هذا .. والأديان عندما تنزل تدل الإنسان على الطريق وتحذره من السبل التي تتفرق به.. وما على الأنبياء (عليهم السلام) بعد ذلك سوى البلاغ.. ويبقى الإنسان حرا عند ذلك في اختيار الطريق ، فليس لأحد حتى النبي نفسه أن يكون عليهم مسيطرا أو جبارا أو وكيلًا..

إلا أن الأمر الذي يجب ألا يغيب عن البال لحظة واحدة.. الحقيقة الواضحة الساطعة التي لا تكسفها حشود الأباطيل والأضاليل والمصالح والأهواء ، هو أنه ليس ثمة للخلاص والسعادة والتوازن والعطاء والتوحد والفرح والسكينة والائتمان سوى طريق واحد هو طريق الله ، وأن ما عداه لن يقود إلا إلى الطرق المسدودة والشقاء والانحراف والتخلف والتمزق والحزن والقلق والتشتت والدمار .

هذه الطرق أو المناهج أو الشرائع التي تعد بالعشرات والمئات والألوف عبر تاريخ البشرية ، والتي تغطي على خوائها وتعاستها وتناقضاتها بألف وجه أو ديكور جميل ، والتي تتزين وتتبرج وترفع نداءها المغري لكي تخدع به الإنسان وتسوقه إلى الحظيرة .. هذه الطرق كلها ، بما أنها تصدر عن أصحاب الشهوات ، تقود - بالضرورة - إلى الميل العظيم بكل ما تتضمنه الكلمة من قيم ومعان ومعطيات هي في نهاية التحليل وبدأيته ضد الإنسان والموقف البشري في العالم ، هذه الطرق كلها ، يقابلها طريق واضح ، بين ، محدد ، مستقيم كالصراط ، هو طريق الله الذي يعلم من خلق ، والذي هو أدري بخلقه ، وهو اللطيف الخبير .

فمن أجل الإنسان الحائر في هذا العالم .. من أجل الإنسان التائه الضال في طرائق الشيطان.. من أجل الإنسان المستعبد بأهواء أصحاب المصالح والشهوات.. من أجل الإنسان الذي مالت به الطواغيت والأرباب عن الطريق السوي ، ميلا عظيما.. من أجل الإنسان وحده يجيء النداء الإلهي رخيا ، عذبا ، عطوفا ، ودودا ، رحيفا ، متضمنا كل تلك المفردات ذات الدلالة الإنسانية الندية لكي يأوي إليها الإنسان ، مداويا في ظلالها عذابه وآلامه وجراحاته ، مستقبلا هبة من نسيم الرحمة والاستقامة والطهر والفرح والنجاة ، متحررا من كل ضغوط

الاستعباد والشرك ، متمردا على الصنميات والوثنيات ، ثائرا على كل الطواغيت والوضاعين والأرباب ، مفيئا إلى نفسه : إنسانا حرا ، متفردا ، سيدا على العالمين .

(3)

والمقطع المذكور من سورة النساء يربط ، شأن السياق القرآني كله ، بين مصيري الدنيا والآخرة ، فهي ليست الثنائية أو الانقطاع أو التعارض الذي عرفته الأديان المحرفة والشرائع الوضعية الضالة بين الأرض والسماء ، أو الدنيا والآخرة ، أو الفناء والخلود .

إن الذين يستجيبون للنداء ويمضون إلى أهدافهم على الصراط سيكسبون الجولة هنا وهناك ، وسيحيون في الأرض حياة هائلة ، متوازنة ، سعيدة ، معتدلة ، مطمئنة .. ثم لما يجيء يوم الحساب يدخلون إلى مصائرهم مدخلا كريما .. والذين يرفضون النداء ، ويختارون السبل والطرائق المعوجة ويقبلون على أنفسهم أن يستعبدوا للأرباب والطواغيت وأصحاب الشهوات ، سيخسرون الجولة هنا وهناك ، وسيحيون في الأرض حياة شقية ، مضطربة ، جانحة ، قلقة ، ممزقة ، وسيميل بهم الذين يمسكونهم من قرونهم ميلا عظيما عن كل المنطلقات والقيم والمواضع والأعراف المتوازنة ، العادلة ، الثابتة المستقيمة .. ثم لما يجيء يوم الحساب يدخلون مدخلا مذموما ، ويصلون نارا.. لا انفصال أو تغاير في المصير بين الدنيا والآخرة ، وما قد يبدو للوهلة الأولى ، وعبر شرائح زمنية محدودة مهما طال بها المدى، من تحقق بالسعادة ، والتفوق لأصحاب السبل المتفرقة ، وتعاسة وانكسار لأصحاب الصراط الواحد إنما هي حالة موقوتة تنبثق عن شبكة النواميس التي قدر الله سبحانه أن يتحرك التاريخ البشري وفق معطياتها ، ولكنها ليست حالة أبدية ، كما أنها ليست حالة شاملة، فهي سرعان ما ستؤول إلى الانحسار والخذلان بمجرد توفر البديل الإيماني الذي يعرف كيف يستكمل الأسباب ، كما أنها حتى وهي تتحقق بالعلو في هذا العالم ، فإنه في نهاية الأمر علو ظاهري ، قد يغطي بمنطق التكاثر المادي وحده ما تتضمنه التجربة نفسها ، في الطبقات الأبعد ، من النفس والمجتمع ، من تعاسة وتمزق وازدواجية وقلق وتحطم ودمار .. ويكفي أن ننظر إلى ما أصاب حالات التفوق تلك عبر التاريخ البشري وكيف أنها ما لبثت أن انطوت جميعا وأصبحت خيرا وأحاديث .. ويكفي كذلك أن ننظر إلى ما يعانیه إنسان ، ومجتمعات الحضارة الغربية المتفوقة الراهنة ، فيما يقوله ويعلنه أبناؤها أنفسهم ، من مواقع الفكر والسياسة والعقيدة والإعلام⁽¹⁾ ، لكي ما نلبث أن

(1) تحدثنا عن هذه المسألة بالتفصيل في مؤلفات أخرى وبخاصة (تهافت العلمانية) ولكننا نشير هنا إلى كتاب أريك فروم : (الإنسان بين الجوهر والمظهر) كواحد من أحدث الإصدارات في هذا المجال (ترجمة سعد زهران) سلسلة عالم المعرفة ، الكويت - 1989م .

نطمئن إلى أن (السبل) مهما امتد بها المطاف لا يمكن إلا أن تزول من خرائط التاريخ ، ولا يمكن - كذلك - إلا أن تتضمن ذلك القدر الكبير من التعاسة والشقاء والآلام التي لا ينقذ الإنسان منها ، ولا يشفع دونها ، إلا ذلك النداء الإلهي الذي يأخذ بيد الإنسان بالرحمة والتخفيف والرضا والكرامة .

هذا إلى أن الحياة الدنيا ، رغم ما يمنحها إياها الدين الحق من ثقل ومكانة ، ليست هي الحياة الأخيرة ، ولا الحياة الدائمة الممتدة.. إنما هي محطة عبر طريق طويل ، محطة للاختبار والابتلاء فحسب.. أما محطة الاستقرار الأبدي حيث يختم على المصير فإنها هناك.. هناك حيث اليوم الواحد كآلف سنة مما نعد ، وحيث تبدو الحياة الدنيا على امتدادها في النفس والتاريخ، حفلا للتعارف ، قد يستغرق دقائق أو ساعات ، وقد يكون من عجلته وتصمره إن المرء ينسى بعده - بلحظات - كل الأسماء والشخوص والوجوه التي تعرف عليها قبل قليل!

(4)

والمقطع المذكور من سورة النساء ، بما أنه يصدر عن الله سبحانه الذي يعرف ضعف الإنسان ، واستعداده لقبول الخديعة ، والذهاب مع أصحاب الشهوات إلى آخر المطاف لكي يميلوا به الميل العظيم .. القرآن الكريم من أجل أن يقطع الطريق على هؤلاء فيحرر الإنسان من الاثراك التي نصبوها له في كل منعطف أو زاوية ، يستجيش كل قوى الدفع في النفس البشرية ، يضرب على كل الأوتار الحساسة في تكوين الإنسان ، كما أنه يعتمد أقصى درجات الواقعية والمرونة لتحقيق مهمته هذه في إنقاذ الإنسان والعودة به إلى الصراط .

إنه يفتح باب التوبة على مصراعيه لكي لا تكون الخطيئة التي تحيط بالإنسان دافعا للإيغال في الضلال ومتراسا يصده عن العودة ثانية إلى الطهر والاستقامة . وإذا كانت الخطيئة في العديد من المذاهب والأديان المحرمة أمرا كليا يحيط بالإنسان ويصده عن الغفران، فإنها في الإسلام تتجزأ، إذا صح التعبير ، لكي تظل المنافذ مفتوحة يدخل منها النور والهواء الطلق ، وتضل الحسنات تلاحق السيئات فتمحوها بل أن الحسنات الواحدة تمحو عشرة من السيئات، ويظل الإنسان المسلم يحس في أعرق نقطة في وجدانه أنه غير منفي من ملكوت الله حتى لحظات الاختيار الحر الأخيرة، وأن بمقدوره أن يرجع إلى الصراط حينما أراد.

والقرآن الكريم بواقعيته ومرورته ، وتطابق تعاليمه وتوجهاته مع حجم الإنسان ونسيجه ، يركز على اجتناب الكبائر ، أما الصغائر ، أما اللمم ، الذي ليس بمقدور الإنسان إلا أن يقع فيه ويمارسه المرة تلو المرة ، فإن الآيات لا تشير إليه ها هنا إنما تتحدث عنه في موضع آخر وفي معرض الغفران للذين أحسنوا : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا

عَمَلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى⁽¹⁾ . المهم أن يتصدى الإنسان للكبائر ، أن يستجيش كل طاقاته للتفوق عليها ، وحينذاك ستكون هذه الوقفة فرصة لتلقي الثمن الجزيل : التكفير عن السيئات ودخوله منتصرا مرفوع الرأس يوم القيامة ، من بوابة المدخل الكريم .

وكتاب الله يعرض هذا التقابل المؤثر بين إرادة الله وإرادة أصحاب الشهوات ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ ، فكأنه تقابل بين حالتين أو وضعين ، تنفتح في أولهما الأبواب وتنفتح حتى ليصير بوسع المرء الخاطيء أن يرجع إلى الصراط من أي باب شاء ، وهي جميعا على مرمى حجر منه ، ذلك أن إرادة الله سبحانه شاءت أن يتوب على الإنسان الذي (خلق ضعيفا) بسبب من تلبس روحه بكثافة الطين وتقله وشده .

أما في الحالة الثانية فتتعلق المنافذ والأبواب ويجد الإنسان نفسه مسوقا بقوة لا تقهر إلى مزيد من الانحدار ، مسلوبا باتجاه نداء أصحاب الشهوات ، مستعبدا حتى آخر نقطة في وجدانه لإغراءات الطغيان ، يائسا - حتى في حالة المحاولة - من أي خيط ، من أي بصيص نور يرده إلى الطريق ويكفّ اندفاعه المخزي صوب القعر حيث الميل العظيم الذي يرسمه له الوضاعون والأرباب .

ومع باب التوبة المفتوح ذلك التخفيف الإلهي في كل ما يصدر عن الله سبحانه من تعاليم وشرائع والزامات .. من تحليل أو تحريم.. من مندوب أو مباح أو مكروه.. هذا التخفيف الذي تتعكس ظلاله الندية السمحة على نسيج الإسلام كله .. على تشكيل شريعته التي سميت بالشرعية السمحاء .. هذا التخفيف الذي تتصادى مفرداته في مساحات القرآن ، في سورة ومقاطعته وآياته ، هذه نماذج منها : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾⁽²⁾ ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾⁽³⁾ ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾⁽⁴⁾ ، ﴿وَأِمَّا تَغْرِضَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾⁽⁵⁾ .

وهذه الدعوة السمحة للتخفيف تعكس - فضلا عن ذلك - البعد التحريري لهذا الدين الذي جاء لكي ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

(1) النجم 31-32 .

(2) البقرة 185 .

(3) الطلاق 4 .

(4) الليل 5-7 .

(5) الإسراء 28 .

الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..»⁽¹⁾ . ولطالما عبث السدنة والوضاعون ومحرفو الأديان بتعاليم الله ، وهم من أجل أن يشترخوا بآيات الله ثمنا قليلا ، ومن أجل أن يستعبدوا الأذلة والأتباع ، كانوا يلجأون إلى مزيد من التقييد .. إلى الإصر التي تنوء به الأكتاف .. إلى جعل الحرام هو القاعدة والحلال هو الاستثناء .. ويجيء الإسلام ، محررا مخففا، يجئ لكي يخرج بالإنسان المتورط من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

ومع (التوبة) و (التخفيف) دعوة للعدل والرضى في التعامل الاجتماعي.. في إقامة مجتمع يسوده الحق والعدل وتنتفي فيه كل صيغ القهر والابتزاز والعدوان والظلم التي يعدها التعبير القرآني ، بحق ، قتلا للنفس . وتلك هي حال المجتمعات التي تند عن توجيهات السماء ، فليس ثمة بعدها إلا الظلم والعدوان . ويكفي أن ينظر المرء إلى معسكري الرأسمالية والشيعوية اللذين كانا يقتسمان العالم إلى وقت قريب ، لكي يرى ما يسودهما من ظلم وابتزاز وعدوان . والقرآن الكريم في دعوته هذه يمد استجاشته من الخاص إلى العام ، ومن الفرد إلى المجتمع . فإذا كان في التوبة والتخفيف يتوجه إلى الأفراد ، فهو في دعوته لالتزام الحق والعدل يمضي إلى المجتمعات ، وهو في كل الأحوال يجعل النتيجة النهائية المتمخضة تنعكس بصيغة شاملة على الحياة البشرية هنا في الأرض وهناك في السماء .

(5)

ومن وراء كل الآيات القرآنية الباهرة .. ومن وراء الدفق الإلهي العجيب للتعبير والصور والأفعال التي ينطوي عليها كتاب الله .. ومن وراء كل تعبير أو مثل أو إشارة أو استعارة أو قصة أو أخبار أو سنة أو ناموس أو تشريع أو تكليف .. من وراء كل كلمة وكل حرف ، يمكن للإنسان ، بمجرد أن يكسر الأقفال عن القلب ، ويزيح الرين والصدأ عن الفؤاد والوجدان .. أن يجد إيقاعا واحدا ، مغزى متفردا ، هدفا متميزا ، إشارة ما ، تلميحاً بحقيقة هي جوهر كل الحقائق وأساس كل ظاهرة أو ممارسة .

إن كتاب الله يريد أن يضع الإنسان في موقع التوازن ، والالفة ، والانسجام ، مع نفسه، مع الآخرين ، مع البيئة ، مع الأشياء والخلائق والموجودات .. ومع الطبيعة والعالم والكون.. باختصار .. يريد القرآن ، بالعلم الإلهي الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، والذي يعلم السر وأخفى ، والذي هو سبحانه أدرى بخلقه .. أن يحقق للإنسان أقصى حالات الوفاق مع الحياة والوجود . وبالمقابل ، فإنه يريد أن يبين ، بكلماته المعجزة ، أن كل الطرائق

(1) الأعراف 157 .

والمذاهب والتصورات والعقائد الأخرى.. كل المحاولات الوضعية على الإطلاق تريد - عامدة أو غير عامدة - أن تخرج بالإنسان عن هذه الحالة إلى الانحراف ، وفقدان التوازن ، وضياح الانسجام ، بدرجة أو بأخرى . وأما الأسباب فكثيرة وليس أقلها الجهل والقصور والهوى والتحيز والمصلحة والظن والعجز .. إلى آخره.. مما هو مرتبط في الأساس بحجم القدرة البشرية وطبيعة التكوين الآدمي .

إنه التقابل الذي لا شيء وراءه بين الحق والباطل ، والصدق والخديعة ، والهدى والضلال ، والصراف والانحراف .. باختصار : بين هدي الله وتخبطات العبيد . إن أية آية وقعت أنظارنا عليها ، أي مقطع قرآني لامسته بصائرنا ، أية سورة استعرضتها أفئدتنا بقدر من التفتح والشفافية الإيمانية والذكاء .. فإننا سنجد أنفسنا في نهاية الأمر إزاء النول الإلهي الذي يروح ويجئ لكي ينسج المغزى نفسه .. يؤكد الهدف ذاته.. وهو أن هذا الدين ، الذي هو خاتمة الأديان ، وجوهرها ، ومصداقها ، وجامعها كذلك ، إنما يريد أن يجابه كل حالات الضلال البشري التي تتلبس ألف صيغة وصيغة وتندرع بالمذهبية والعقائدية والأيدولوجية.. إلى آخره .. لكي تضع الإنسان في حالة انشقاق مع فطرته التي فطره الله عليها ، وارتطام بالسنن والنواميس الطبيعية والكونية التي سخرها له ابتداء .. يجابه هذا كله لكي يخرج بالإنسان كرة أخرى من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويضعه ثانية وفق الحالة الوحيدة التي لا حالة قبلها أو بعدها يمكن أن تعدلها ، من التوازن والعدل والالفة والوفاق والانسجام ، ويكفي أن نقرأ المقطع الذي يتضمن الآيات 111-140 من سورة الأنعام لكي يعطينا مثلا واحدا فحسب لما يريد كتاب الله أن يقوله ، ويصنعه ، ويقود إليه في آياته ومقاطعته وسوره جميعا .

(6)

وعلى مدى كتاب الله ، يمكن للمرء أن يتابع نمطين ، أو صفتين ، من المفردات المتضادة التي يتولى كل خط منها صياغة عالم يختلف في أسسه ، ومعمارها ، وملامحها وتوجهاته ومغزاه عن العالم الآخر اختلافا جذريا قد يمتد من الطول إلى الطول ، الأمر الذي ينعكس - ابتداء - على وضع الإنسان في العالم العدل المضيء الذي يريد الله ورسوله ﷺ إقامة بنيانه ودعوة الناس إلى دخوله ، والعالم المظلم المعوج الذي يسعى الكهنة والمتسلطون والوضاعون والأرباب إلى إرغام المستعبدين والمستضعفين والأتباع على اجتيازه واعتقال أنفسهم في بنيانه المائل .

في الصف الأول نقرأ ، على سبيل المثال لا الحصر : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾⁽¹⁾ ، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾⁽²⁾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾⁽³⁾ ، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾⁽⁴⁾ ، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽⁵⁾ ، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾⁽⁶⁾ ، ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾⁽⁷⁾ ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾⁽⁸⁾ ، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾⁽⁹⁾ ، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾⁽¹⁰⁾ ، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾⁽¹¹⁾ ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾⁽¹²⁾ ، ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾⁽¹³⁾ ، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾⁽¹⁴⁾ ، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾⁽¹⁵⁾ ، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾⁽¹⁶⁾ ، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾⁽¹⁷⁾ ، ﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾⁽¹⁸⁾ ، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾⁽¹⁹⁾ ، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ

(1) المائدة 42 .

(2) آل عمران 18 .

(3) النساء 135 .

(4) الأنعام 152 .

(5) الحديد 25 .

(6) الإسراء 35 .

(7) الشورى 15 .

(8) المائدة 8 .

(9) الأعراف 181 .

(10) الأنعام 152 .

(11) النساء 58 .

(12) الأنعام 115 .

(13) الأنعام 154 .

(14) الكهف 30 .

(15) القصص 77 .

(16) السجدة 7 .

(17) البقرة 83 .

(18) الشورى 23 .

(19) الزمر 18 .

مِنَ الطَّيِّبِ»⁽¹⁾ ، «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ»⁽²⁾ ، «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»⁽³⁾ ، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا»⁽⁴⁾ ، «وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ»⁽⁵⁾ ، «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ»⁽⁶⁾ ، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ»⁽⁷⁾ ، «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ»⁽⁸⁾ ، «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»⁽⁹⁾ ، «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ»⁽¹⁰⁾ ، «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»⁽¹¹⁾ ، «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»⁽¹²⁾ ، «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ»⁽¹³⁾ ، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا»⁽¹⁴⁾ ، «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»⁽¹⁵⁾ ، «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»⁽¹⁶⁾ ، «وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا»⁽¹⁷⁾ ، «قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا»⁽¹⁸⁾ ، «لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»⁽¹⁹⁾ ، «وَإِنَّكَ

(1) آل عمران 179 .

(2) الأعراف 58 .

(3) فاطر 10 .

(4) البقرة 168 .

(5) النور 26 .

(6) إبراهيم 24 .

(7) المائدة 87 .

(8) الأعراف 157 .

(9) البقرة 257 .

(10) المائدة 15 .

(11) الأعراف 157 .

(12) إبراهيم 1 .

(13) الصف 8 .

(14) النساء 174 .

(15) البقرة 142 .

(16) آل عمران 101 .

(17) الأنعام 126 .

(18) الأنعام 161 .

(19) إبراهيم 1 .

لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁽¹⁾ ، «أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁽²⁾ .

وفي المقابل نقرأ - على سبيل المثال لا الحصر كذلك : «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ⁽³⁾ ، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ⁽⁴⁾ ، «فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁽⁵⁾ ، «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً⁽⁶⁾ ، «وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا⁽⁷⁾ ، «وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَتَمِّسَكُمُ النَّارَ⁽⁸⁾ ، «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ⁽⁹⁾ ، «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهَلَكْنَا هُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا⁽¹⁰⁾ ، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ⁽¹¹⁾ ، «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ⁽¹²⁾ ، «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ⁽¹³⁾ ، «وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا⁽¹⁴⁾ ، «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ⁽¹⁵⁾ ، «الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ⁽¹⁶⁾ ، «وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ⁽¹⁷⁾ ، «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ⁽¹⁸⁾ ، «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

(1) المؤمنون 73 .

(2) الملك 32 .

(3) الزخرف 76 .

(4) النساء 168 .

(5) 45 .

(6) 25 .

(7) 13 .

(8) 113 .

(9) 116 .

(10) 59 .

(11) 227 .

(12) 42 .

(13) 40 .

(14) 58 .

(15) 100 .

(16) 26 .

(17) إبراهيم 26 .

(18) البقرة 17 .

يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»⁽¹⁾ ، «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ»⁽²⁾ ، «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»⁽³⁾ ، «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»⁽⁴⁾ ، «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ»⁽⁵⁾ ، «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا»⁽⁶⁾ ، «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا»⁽⁷⁾ ، «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا»⁽⁸⁾ ، «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا»⁽⁹⁾ ، «فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا»⁽¹⁰⁾ ، «وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا»⁽¹¹⁾ ، «وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ»⁽¹²⁾.

(7)

جوهر الحياة التي يريدتها الإسلام من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هي في نبضها، وخطوطها ، وبصماتها ، ومنطلقاتها ، وهدفها ، ومنظورها ، وصورتها الشاملة ، وصيرورتها .. حياة تقوم على الطهارة ، والنظافة ، والمساواة ، والأخوة ، والتحرر ، والعدل ، والتكافل ، والاعتدال ، والوسطية ، والبذل والإبداع والعطاء ، واليسر والمرونة والسماحة والمحبة .. حياة تتجاوز الالتصاق بثقل الأرض ، لكنها تعرف كيف توفق بين الثنائيات .. حياة تمد المنظور

(1) البقرة 257 .

(2) الأنعام 39 .

(3) الأنعام 122 .

(4) النور 39-40 .

(5) الأنعام 153 .

(6) النساء 22 .

(7) الأعراف 146 .

(8) الفرقان 44 .

(9) آل عمران 99 .

(10) الأعراف 44-45 .

(11) الأعراف 86 .

(12) إبراهيم 3 .

البشري في العالم إلى أبعد الآفاق لكنها لا تغفل - لحظة - عن أقرب نقطة تخفق في حس الإنسان، أو بين يديه .. وهي - قبل هذا وذاك - أخذ عن الله سبحانه ، وتوجه إليه وحده ، ورفض لكل صيغ الصنميات والروبوبات الخادعة التي تميل بالمستضعفين والمستعبدين ذلك الميل العظيم .. إنها التزام بالصراط حيث لا يتبقى في ساحة العالم سوى علاقة العبودية المتحررة ، الخالصة لله ، وصلات التواد والمحبة والعدل والإخاء والتكافل والتعارف بين الإنسان والإنسان : «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»⁽¹⁾ ، «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا»⁽²⁾.

(1) الأنعام 153 .

(2) النساء 27 .

كتب للمؤلف

أ. الأعمال التاريخية

1. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (الطبعة 8) مؤسسة الرسالة – بيروت
2. عماد الدين زنكي (الطبعة 2) مؤسسة الرسالة
3. دراسة في السيرة (الطبعة 17) مؤسسة الرسالة – دار النفائس
4. الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في افريقيا (الطبعة 3) مؤسسة الرسالة
5. التفسير الاسلامي للتاريخ (الطبعة 5) دار العلم للملايين – بيروت
6. نور الدين محمود: الرجل والتجربة (الطبعة 2) دار القلم – دمشق
7. الامارات الارتقية في الجزيرة والشام: اضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
8. في التاريخ الاسلامي: فصول في المنهج والتحليل (الطبعة 1) المكتب الاسلامي – بيروت
9. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (الطبعة 1) مكتبة المعارف – الرياض
10. ابن خلدون اسلاميا (الطبعة 2) المكتب الاسلامي
11. دراسات تاريخية (الطبعة 1) المكتب الاسلامي
12. حول اعادة كتابة التاريخ الاسلامي (الطبعة 1) دار الثقافة – الدوحة
13. المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات (الطبعة 1) دار الثقافة
14. تحليل للتاريخ الاسلامي: اطار عام (الطبعة 1) دار الثقافة
15. المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (الطبعة 1) دار القلم – بيروت
16. حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي (الطبعة 1) دار النفائس – بيروت
17. مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية (الطبعة 1) الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا
18. الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (الطبعة 1) دار الفكر – دمشق
19. دليل التاريخ والحضارة في الاحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو) (الطبعة 1) المعهد العالمي للفكر الاسلامي – عمان

ب. الاعمال الفكرية

1. لعبة اليمين واليسار (الطبعة 5) مؤسسة الرسالة
2. تهافت العلمانية (الطبعة 5) مؤسسة الرسالة
3. مقال في العدل الاجتماعي (الطبعة 4) مؤسسة الرسالة
4. مع القرآن في عالمه الرحيب (الطبعة 3) دار العلم للملايين
5. افاق قرآنية (الطبعة 2) دار العلم للملايين
6. كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (الطبعة 2) دار العلوم – الرياض
7. كتابات اسلامية (الطبعة 1) المكتب الاسلامي – مكتبة الحرمين
8. اضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (الطبعة 2) مؤسسة الرسالة
9. مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
10. العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم) (الطبعة 3) مؤسسة الرسالة
11. مؤشرات اسلامية في زمن السرعة (الطبعة 2) مؤسسة الرسالة
12. حول اعادة تشكيل العقل المسلم (الطبعة 5) كتاب الامة – الدوحة
13. في الرؤية الإسلامية (الطبعة 1) دار الثقافة
14. حوار في المعمار الكوني (الطبعة 1) دار الثقافة
15. الإسلام والوجه الاخر للفكر الغربي (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
16. مدخل إلى اسلامية المعرفة (الطبعة 3) المعهد العالمي – فيرجينيا
17. قالوا في الإسلام (الطبعة 1) الندوة العالمية – الرياض
18. رؤية اسلامية في قضايا معاصرة (الطبعة 1) كتاب الامة – الدوحة
19. القرآن الكريم من منظور غربي (الطبعة 1) دار الفرقان – عمان
20. المرأة والاسرة المسلمة من منظور غربي (الطبعة 1) دار الفرقان
21. الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الاسلامي (الطبعة 1) منشورات فلسطين
22. متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (الطبعة 1) المسلمة – لندن
دار الحكمة – لندن

ج. الاعمال الادبية

1. المأسورون (مسرحية ذات اربعة فصول) (الطبعة 2) دار الارشاد - بيروت
2. في النقد الاسلامي المعاصر (نقد) (الطبعة 4) مؤسسة الرسالة - بيروت
3. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة) (الطبعة 2) مؤسسة الرسالة
4. الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (دراسة) (الطبعة 3) مؤسسة الرسالة
5. جداول الحب واليقين (شعر) (الطبعة 2) مؤسسة الرسالة
6. معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
7. خمس مسرحيات اسلامية (ذات فصل واحد) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
8. محاولات جديدة في النقد الاسلامي (نقد) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
9. الشمس والندس (مسرحية ذات اربعة فصول) (الطبعة 2) دار الاعتصام - القاهرة
10. مدخل إلى نظرية الادب الاسلامي (دراسة) (الطبعة 2) مؤسسة الرسالة
11. الاعصار والمئذنة (رواية) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
12. المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
13. العبور (مسرحيات ذات فصل واحد) (الطبعة 1) دار المنارة - جدة
14. الفن والعقيدة (دراسة) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة
15. في النقد التطبيقي (نقد) (الطبعة 1) دار البشير - عمان
16. ابتهالات في زمن الغربة (شعر) (الطبعة 1) دار الوفاء - المنصورة
17. الغايات المستهدفة للأدب الاسلامي (نقد) (الطبعة 1) دار الضياء - عمان
18. كلمة الله (قصص) (الطبعة 1) دار حضرموت - المكلا
19. الرحيل الى اسطنبول (من ادب الرحلات) (الطبعة 1) دار حضرموت
20. ريبورتاج (حوار في الهموم الاسلامية) (الطبعة 1) دار الحكمة
21. متابعات في دائرة الادب الاسلامي (نقد) (الطبعة 1) مؤسسة الرسالة

الفهرست

| الصفحة | الموضوع |
|---------|---|
| 13-1 | الله .. أو الطاغوت |
| 22-14 | الظلم العظيم |
| 29-23 | أبجديات حول خرافة فصل الدين عن الدولة |
| 34-30 | دعوة إلى الصعود |
| 42-35 | الكاريكاتير القرآني |
| 50-43 | عن العالم في تاريخنا |
| 62-51 | بين (سيد) و (المودودي) |
| 75-63 | كلمات في الدين |
| 86-76 | علم الهوى و علم النبوة |
| 100-87 | ما يريده هذا الدين |
| 103-101 | قائمة كتب للمؤلف |
| 104 | الفهرست |